الفصل الثاني

- دور الإسلاميين في بعث الشخصية الجزائرية المقاومة
- المبحث الأول : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
- المبحث الثاني : دور ابن باديس في توظيف الإسلام سياسيًا

obeikandl.com

دور الإسلاميين
فى بعث الشخصية الجزائرية المقاومة

إن طول فترة المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسى وعدم خبوها ، رغم كل المحاولات جعلت السلطات الفرنسية تفكر فى الحل الأمثل لاحتواء الجزائر ، ووجدت أن الدين واللغة هما العقبتان الرئيسيتان فى طريق مخططها ، ولذلك قررت استئناس الدين ومحاولة احتوائه ، وإفراغه من محتواه ، فعمدت إلى انتزاع الشعب الجزائرى من لغته وماضيه الحضارى ، وخداع شيوخ الطرق الصوفية التى كانت تسيطر على الشعب الجزائرى ، وسقوط الصوفية وتحالفها الآثم مع الاحتلال أدى إلى تقديم الفرصة الذهبية للشيخ عبد الحميد بن باديس ليضرب ضربته للحليفين معًا ، حيث قبل الشعب أفكاره الإصلاحية والسياسية ، وأصبح منذ ذلك الوقت هو الأب الروحى للفكر الإسلامى فى الجزائر المعاصرة ، وتعتمده الحركة الإسلامية الجزائرية الحالية كمرجع لا غنى عنه ، وذلك بعدما انكشف زيف الفكر الصوفى فى الجزائر ، رغم أن الحركة الصوفية كان لها دورها الجهادى المشرف ضد الاحتلال الفرنسى ، ولكن تراجعها وتحالفها مع المخادعين المحتلين أدى إلى سهولة ضربها وسحب الجماهير منها وإقناع الشعب بأفكار إسلامية جديدة تعود به إلى الإسلام النقى ، وهو ما كان يصعب على أى مصلح لو كانت الطرق الصوفية غير متحالفة مع الفرنسيين .

ومحاولة فرنسا المساس بالمحرمات الجزائرية ، الدين واللغة جعل مجمل كفاح الشعب الجزائرى ، ونشاطه السياسى ، محددًا فى إطاره الإسلامى على مدى أكثر من ١٣٠ عامًا فكان الإسلام بكل رموزه ومؤسساته هو الذى يقود ويوجه ، وكانت حلقات الصمود مترابطة من ثورات وأحزاب وجمعيات إسلامية ، وحتى الأحزاب التى ظهرت وكانت لا تحمل توجهًا إسلاميًا واضحًا كانت تؤكد انتماءها للإسلام ، ابتداء من جهاد الأمير عبد القادر (١٨٣٠ - ١٨٧١م) ، وحتى جبهة التحرير الوطنى ، التى قادت حرب التحرير (١٩٥٤ - ١٩٦٢م) ، لم تنكر هويتها الإسلامية وبعدها الجهادى والخطة الفرنسية كانت تعتمد فرنسة وتنصير الشعب الجزائرى ، فالأميرال كيدون ، الوالى

الفرنسى على الجزائر يخاطب الآباء البيض سنة ١٨٧١م قائلاً : « إنكم إذا سعيتم إلى استمالة الأهالى بواسطة التعليم وبما تسدون إليهم من إحسان تكونون قد قدمتم بعملكم هذا خدمة جليلة لفرنسا ، فليس فى وسع فرنسا أن تنجب من الأطفال ما يكفيها لتعمير الجزائر ، ولذلك فمن الضرورى الاستعاضة عن ذلك بفرنسة مليونين من أبناء البربر الخاضعين لسلطتنا ، واصلوا عملكم بحنكة ودراية وحيطة ، ولكم منى التأييد ، وفى إمكانكم أن تعتمدوا على كل الاعتماد »[١] .

ويحكى الرحالة والمبشر الفرنسى « بوجولا » الذى عمل مع المارشال بيجو – حاكم الجزائر أنه فى عام ١٨٤٤م يوم قابله فى منزله بمدينة الجزائر قال له : «ماذا جئنا نعمل فى أفريقيا ؟ فأجبته لكى نواصل العمل الذى بدأه غودى فروا ، ولويس السابع ، وسان لويس » . وكان هذا المارشال يحرص على جمع الأطفال اليتامى ، أو الذين تمت إبادة أهاليهم ، ويقوم بتسليمهم إلى الآباء النصارى على أمل تحويلهم من الإسلام إلى النصرانية ، وكان يخاطب الأب بقوله ، حاول يا أبتِ أن تجعلهم مسيحيين ، وإذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار »[٢] .

نعم لقد مارس الفرنسيون هذه العواطف الصليبية المتأججة عمليا منذ عام ١٨٣٠م حيث حدد وزير فرنسا هدف الحملة آنذاك بأنه يريد « الثأر من أعداء الدين والإنسانية » وأنه يعمل على « تمدين الجزائريين بجعلهم مسيحيين » وهذه الأهداف الفرنسية ظل المحتلون يطبقونها ، وبعد مرور قرن كامل على الاحتلال ، كان رئيس الجمهورية الفرنسى يردد نفس ما كان المارشال بيجو يردده ، ففى عام ١٩٣٠م خاطب الرئيس الفرنسى الشعب الجزائرى بقوله إنه « جاء لتشييع جنازة الإسلام » .

وكتب أحد المفكرين الفرنسيين سنة ١٨٨٣م « نحن بصدد خلق أمة فى الجزائر ، أمة لن تكون متمدنية بدوننا، وفى اليوم الذى احتللنا فيه هذا البلد وطردنا منه الحكومة الوحشية التى كانت تضطهده تعهدنا بمصائر هذه الشعوب، واتخذنا على أنفسنا نحوها عهد تمكينهم من الأنوار، والمعارف، والعقائد التى تفضلت الحكمة

---

(١) د . محمد عابد الجابرى : سياسات التعليم فى المغرب العربى . منتدى الفكر العربى القاهرة الطبعة الأولى ١٩٨٩م ص ١٠٧ .

(٢) محمد على الناصرى : عودة إلى دراسة فترة الاستعمار الفرنسى وآثارها . مجلة العالم ٢٩ فبراير ١٩٩٢م ص ٣٤ .

الإلهية بمنحنا إياها كل ذلك بفضل دولة متحضرة »[1]. وتمثلت خطة فرنسا للقضاء على الشخصية الجزائرية ومقوماتها فى القضاء على اللغة العربية واعتبارها لغة أجنبية مع فرنسة جميع مراحل التعليم ، ومحاولة تصفية معاهد التعليم الحر واضطهاد معلميها، ومن أمثلة ذلك أنه كان فى مدينة قسنطينة، قبل دخول الاحتلال لها سنة ١٨٣٧م ثمانون مدرسة،وسبعة معاهد ، وثلاثمائة مدرسة، وزاوية لم يبق منها بعد الاحتلال سوى ثلاثين مدرسة فقط وفى عنابة كان يوجد ٣٩مدرسة و٣٧ مسجدًا وجامعًا وزاويتان قبل الاحتلال تقلصت إلى ثلاث مدارس و١٥ مسجدًا[2] .

كما اقتضت الخطة الفرنسية القضاء على الإسلام الذى يعتبر مقومًا أساسيًا للشخصية الجزائرية ، وبذلك يمكن لفرنسا إحراز نصر دينى ، ولذلك حولت أعدادًا كبيرة من المساجد الإسلامية الهامة إلى كنائس وباعت جزءا لليهود نكاية فى المسلمين وسيطرت على الأوقاف وكرد فعل على السياسة الاستعمارية الفرنسية قامت « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » الشهيرة التى تأسست عام ١٩٣١م بعد مرور قرن من الاحتلال ، ورفعت شعارها المجيد الذى كان خط الدفاع الأخير عن الجزائر وهو : الإسلام والعروبة والجزائر كما كان المنطلق لعملية التحرير الوطنى بعد بناء الشخصية الجزائرية من جديد ، فهذه الجمعية هى التى وضعت البنية الأساسية لحرب التحرير .

وإذا كنا نقول إن الشيخ عبد الحميد بن باديس مؤسس تلك الجمعية هو الأب الروحى للحركة الإسلامية المعاصرة فى الجزائر ، فإنه أيضًا هو الأب الحقيقى لحرب التحرير ، وإن كان قد استخدم فى جهاده الأسلوب الدينى السياسى ، وكان ذلك بالنظر إلى الظروف الدولية آنذاك ، وطبقًا لمعايير المصلحة الإسلامية عملاً جهاديًا من الدرجة الأولى ولا يمكن أن نقيسه على الظروف الحالية فهو نجح فى منع تذويب الشخصية الجزائرية وإن كان لم يطالب بالاستقلال عن فرنسا آنذاك لأن المعركة كانت على ساحة الإنسان نفسه كفرد وشعب وترك هذه الساحة للحرب على الأرض كانت ستكون خيانة عظمى للإسلام والجزائر ولذلك ركز جهوده على جبهة واحدة هى المحافظة على الشخصية الجزائرية من الأنصهار ، وبالتالى ضياع كل شىء فإذا كانت الأرض قد ضاعت واحتلت

---

(١) د . نبيل أحمد بلاسى . مصدر سبق ذكره ص ٣٣ ، ص ٣٤ .

(٢) د . تركى رابح : التعليم القومى والشخصية الوطنية (١٩٣١ - ١٩٥٦م) ، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٧٥م ص ٩٣ - ٩٤ .

فإنه من الممكن استردادها ، ولن يتحقق ذلك إذا ضاع إنسان تلك الأرض ولذلك فإن المحافظة على ذلك الإنسان هو فى الحقيقة محافظة على الأرض وهذا ما حدث بالفعل .

فجمعية العلماء تحت قيادة ابن باديس خاضت ذروة معاركها سنة ١٩٣٣م عندما صدر قرار وزير الداخلية الفرنسى باعتبار العربية لغة أجنبية ونجحت إلى حد كبير الجمعية فى الحفاظ على عروبة الجزائر وإسلامها .

ولأهمية دور جمعية العلماء وابن باديس ، سنفرد مبحثين لإيضاح دورها فى بلورة الشخصية الجزائرية فى مفهومها الإسلامى والقومى والوطنى ، تلك الشخصية التى قادت حرب التحرير واختارت الإسلام كمنهج حياة متكامل فى معركة الديمقراطية عام ١٩٩١م وهو الأمر الذى أدى إلى مصادرة خيارات الشعب الأمر الذى دفع الجزائر إلى مرحلة العنف .

ولفهم خيار الشعب الجزائرى لابد من دراسة دور جمعية العلماء ، وابن باديس فى بناء الشخصية الجزائرية .

المبحث الأول
جمعية العلماء المسلمين

قبل الحديث عن هذه الجمعية ، يجب أن نلقى نظرة عجلى على التيارات السياسية واتجاهاتها بعد الحرب العالمية الأولى ، ويمكن القول : إن الحزب الإصلاحى الذى أسسه الأمير خالد حفيد عبد القادر الجزائرى ، هو بداية الحركة الوطنية ، حيث كان الأمير خالد قد كوَّن وفدا من الضباط الجزائريين فى الجيش الفرنسى طالبوا للرئيس الأمريكى ويلسون أثناء وجوده فى فرساى بفرنسا تطبيق مبادئه المعروفه باسمه على الجزائر[1] ، ورغم المواجهة العنيفة التى اتبعتها فرنسا إزاء الحركة الوطنية الجزائرية إلا أن الأحزاب السياسية الجزائرية توالت فى الظهور خاصة فى الثلاثينات ، وهى الفترة التى حددت التيارات السياسية واتجاهاتها الثلاث وهى :

١ – تيار يتنوع بين أقصى اليمين واليمين المعتدل وعبرت عنه الطرق الصوفية وكتلة المسلمين الجزائريين المنتخبين .

٢ – تيار الوسط وعبرت عنه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

٣ – تيار اليسار وعبرت عنه جمعية نجم شمال أفريقيا والحزب الشيوعى الجزائرى والتيار الأول انحرفت فيه الطرق الصوفية عن الإسلام الصحيح ، مما أدى إلى إفساد الفطرة الإسلامية ، وتفكك روح التضامن الإسلامى وتطويع الجزائريين على الذل والخضوع للاحتلال ، ومن المعروف أن شيوخ الطرق الصوفية كانوا قد تحالفوا مع الممثلين الفرنسيين ودعوا أتباعهم بطاعة الاستعمار ، إلا أن جمعية العلماء نجحت فى تنبيه الشعب إلى خطورة تلك الطرق وفضها مما جعل الشعب ينفض عنها .

أما كتلة المسلمين الجزائريين المعروفة باسم ودادية المسلمين المنتخبين والتى ضمت ذوى الثقافات الفرنسية وأصحاب الاتجاهات الاشتراكية ، وكذلك المسلمين إلا أن هؤلاء اتفقوا على هدف واحد هو معارضة الاستعمار ، وتزعم هذه الودادية أو الاتحاد

---

(١) د . نبيل أحمد بلاسى . مصدر سبق ذكره ص ٤٧ .

الدكتور بن جلول ، وكانت مطالبة هؤلاء تتركز فى المساواة بالفرنسيين مع حرية العقيدة والتعليم للمسلمين ،ومساواة الدين الإسلامى بغيره من الديانات .

أما تيار الوسط الذى مثله العلماء فقد شكل قوة هائلة لنشر الوعى الوطنى ومعارضة سياسة الاستعمار الذى عمل على تحطيم القومية الجزائرية ونجح هذا التيار فى السيطرة على الجماهير الجزائرية .

نجم شمال أفريقيا

أما تيار اليسار مثلته جمعية « نجم شمال أفريقيا » التى استخدمت الصحافة كوسيلة اتصال بالجماهير ، وكانت تصدر صحيفة « الإقدام » التى أنشأها الأمير خالد سنة ١٩١٩م ولكن هذه المرة تحت عنوان « الأقدام الباريسى » وأضافت إليه عنوان فرعى بالعربية « من أجل الدفاع عن مسلمى شمال أفريقيا »[١] .

وكان هذا الحزب يطالب باستقلال الجزائر وإنشاء جيش وطنى ، وتأميم أراضى الشركات الإقطاعية وإلغاء القوانين الاستثنائية بما فيه قانون الأهالى ، وإطلاق حرية الصحافة ،والحقوق السياسية والنقابية ، والانتخابية ، وحق الجزائريين فى التعليم ، وإنشاء المدارس العربية ، وتطبيق القوانين الفرنسية على الجزائريين ، وزيادة القروض الفلاحية .

وقامت السلطات الفرنسية بحله فى سنة ١٩٢٩م ، فلجأ إلى النشاط السرى ، معززاً بذلك التنظيم الشيوعى الذى كانوا قد انضموا إليه فى البداية وفى نفس الوقت تأسس حزب جديد تحت اسم « النجم الثاقب » الذى أصدر صحيفة الأمة إلا أنه حل أيضا . وعاد هذا الحزب فى الظهور مرة ثانية عام ١٩٣٣م .

ويرى أحمد توفيق المدنى فى كتابه « حياة كفاح » أن حركة « نجم شمال أفريقيا » كانت حركة مطهرة فاضلة مخلصة أوحى بها الضمير الحر لرجال من المغرب العربى كان من بينهم الأمير خالد بن الهاشمى حفيد الأمير عبد القادر ، وعلى الحمامى ، ومصالى الحاج ، وقد ظهرت حركتهم الأولى بين العمال المسلمين ، وتم تأسيس الحركة فى ١٩٢٦م[٢] .

---

(١) أبو القاسم سعد الله . مصدر سبق ذكره ص ٤٢٦ .

(٢) أحمد توفيق المدنى : حياة كفاح فى الجزائر ١٩٢٥ – ١٩٥٤م .القسم الثانى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . بدون تاريخ ص ١٣٠ .

ويقول أحمد الصافى وصالح فرحات لأحمد توفيق المدنى : إن هذه الحركة شيوعية بحتة ، وإن عبد القادر بن الحاج ومصالى الحاج من رجال الحزب الشيوعى المعدودين ولا يزالان يعملان سرًا وباتفاق معه .

ويرد المدنى بأن الحركة الوطنية القومية لابد لها فى مبدأ أمرها ، أن تستعين بحركة كبرى تحررية ، والشيوعية حركة تحررية لا محالة ، وانتهى الحوار إلى عدم اقتناع الإسلاميين فى الجزائر بدخول هذه الحركة التى نسج خيوطها لو سيان سان إلى جمعية العلماء[1] .

أعاد مصالى سنة ١٩٣٤م تكوين النجمة باسم جديد هو الاتحاد الوطنى لمسلمى شمال أفريقيا ، واعتبرت فرنسا ذلك الحزب غير مشروع ، وفى جنيف التقى الحاج بالأمير شكيب أرسلان ، الذى تمكن من أقناعه بالتحول إلى مظهره العربى الإسلامى وزيادة الاتصال بالحركة الإصلاحية فى الجزائر ، وعندما تقرر حل الجمعية فى ١٩٣٧م أعلنت عن نفسها تحت اسم حزب « الشعب » الجزائرى ، وهو حزب سياسى ذو مضمون إسلامى . وتشير مغنية الأزرق إلى أن مصالى الحاج كان عضوًا سابقًا فى الحزب الشيوعى الفرنسى إلا أنه تأثر فى وقت لاحق بحركة « الإحياء الإسلامى »[2] .

أما الاتجاه الثانى داخل اليسار فكان الحزب الشيوعى الجزائرى الذى استقل عن الحزب الشيوعى الفرنسى عام ١٩٣٥م ، وبدأ تحت قيادة جان شانتورن وأسندت المناصب القيادية فى الحزب إلى الجزائريين أمثال « أوزجان عمار » ، ولكنه فشل على الصعيد الجزائرى .

وهكذا نجد أن قوى اليمين المتطرف (الطرق الصوفية) قد اندثرت ، ومالت قوى اليمين المعتدل والوسط صوب اليسار خاصة بعد الحرب العالمية الثانية إلا أن الوسط المتمثل فى جمعية العلماء قد انفرد ببرنامجه الخاص بدعم الشخصية الجزائرية العربية المسلمة .

جمعية الجزائر الفتاة

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى جمعية «الجزائر الفتاة» والتى كانت تترسم خطى حركة « تركيا الفتاة»، وكانت الحركة الجزائرية شغوفة بتطعيم الإسلام بالثقافة الفرنسية ، وإن

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٣ .

(٢) مغنية الأزرق: نشوء الطبقات فى الجزائر. ترجمة سمير كرم . مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٨٠م ص٧٢ .

هدفها كان اكتساب حق المواطنة ، أى العضوية الكاملة فى المجتمع الفرنسى شأن المواطنين الفرنسيين فى الجزائر ، وإلغاء المحاكم الخاصة ، وقانون الأهالى ، وإلغاء الضرائب « المسماة ضرائب العرب ، والمشاركة السياسية فى المؤسسات المحلية ، والتمثيل فى البرلمان الفرنسى ، وطالبت حركة الجزائر الفتاة فى مقابل تجنيد الجزائريين فى الجيش بالمواطنة الفرنسية ، التى كان مشرعو الإمبراطورية الثانية يعتقدون أنها لا تتواءم مع الحالة المدنية الإسلامية ، والحقيقة أن ما نص عليه مرسوم مجلس الشيوخ عام ١٨٦٥م من أن « المواطن المسلم هو فرنسى ، ومع ذلك فسيتم تدبير شئونه وفقًا للقانون الإسلامى ، لم يطبق . إذا كان الاعتقاد أن مبادئ القانون الإسلامى تتناقض مع قوانينا وأعرافنا المتعلقة بالزواج والطلاق والحالة المدنية للأبناء » ، ولهذا كان يتعين على الجزائريين – لكى يصبحوا مواطنين فرنسيين – أن يتخلوا عن وضعيتهم الدينية ، على الرغم من أنه تم منح المواطنة الكاملة لليهود الجزائريين (الذين كان الفرنسيون يعدونهم من « الأهالى أيضًا فى البداية » بواسطة مرسوم كريميو للعام ١٨٧٠م وكذلك للأجانب الذين يولدون فى الجزائر بواسطة قانون ١٨٨٩م) .[1]

وهكذا نرى أنه حتى الذين كانوا يطالبون بالمواطنة الفرنسية الكاملة كانوا لا ينسون أبدًا دينهم الإسلامى ، وكان موقف السلطة الفرنسية من تلك الحركة يوجه التحذير القائل : «بأن إعطاء الأهالى الحقوق السياسية من شأنه أن يمكن رجال الجزائر الفتاة من أن يبدءوا حركة وطنية موجهة ضد الاحتلال الفرنسى » .

جماعة الحق :

وكانت هناك معارضة إسلامية لجماعة « الجزائر الفتاة» قادتها جماعة تدعى جماعة « الحق » وكانت تستهدف الإحياء الإسلامى أكثر من الحصول على الحقوق المتساوية مع الفرنسيين ، وتألفت هذه الجماعة من صغار ملاك الأراضى ، وأصحاب المحلات والمعلمين ،وكانوا يطالبون بإصلاحات اجتماعية وإدارية ، خاصة تحسين حالة الفلاحين الاقتصادية ، وبضمانات ضد مصادرة الأرض ، وعلى النقيض من « الجزائر الفتاة» كانت جماعة « الحق » تعارض بشدة كلا من الخدمة الإجبارية ، ومد نطاق المواطنية الفرنسية ، لتشمل الجزائريين وهكذا فإنه فى حين كان أعضاء «الجزائر الفتاة» هم الناطقون باسم مايسمى «النخبة الجديدة»، كان أعضاء جماعة «الحق» يدافعون عن حقوق الفلاحين ومع

(١) المصدر السابق ص ٧٠ .

ذلك فإنها اجتذبت أولئك الأعضاء فى جماعة «الجزائر الفتاة» الذين كانوا يناهضون التخلى عن وضعيتهم الإسلامية للحصول على المواطنة الفرنسية.[1]

نادى الترقى

وفى عام ١٩٢٦م اجتمع ٣٢ رجلاً من أعيان الجزائر ودعا أحمد توفيق المدنى بإنشاء نادى الترقى ، وتم بناء نادى يسع ٧٠٠ شخص وكتب المدنى الاسم بالعربية على اليمين ، وبالفرنسية على اليسار ، يفصل بينها شعار مدينة الجزائر الرسمى وتم وضع رسم مصحف مفتوح فى مكان الصليب الرسمى ، وكان يوم الثالث من شهر يوليو ١٩٢٧م يومًا مشهودًا ففيه تم افتتاح النادى الذى كان يعبر عن اتحاد بين أصحاب النيات الحسنة بغض النظر عن المراكز الاجتماعية ، اتحاد لكل عناصر المجتمع الجزائرى ، كان النادى ميلادًا جديدًا للقومية الجزائرية بعد أن قضى عليها الاستعمار أو كاد .

وكان من نتيجة أعمال النادى علاوة على المحاضرات الأسبوعية : تأسيس جمعية الفلاح، وجمع شمل وحدة النواب الجزائريين، ومؤتمر طلاب شمال أفريقيا، وتأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية الكبرى، مقاومة سياسة التجنس والاندماج، مساعدة الكفاح الفلسطينى، مقاومة التبشير المسيحى، ومحاولة تكوين بنك إسلامى. وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[2].

وإن كانت معظم المصادر تؤكد أن نادى الترقى كان مركزًا فقط لاجتماعات جمعية العلماء فى مرحلتها الأولى ولم يكن للنادى دور مهم فى تأسيس الجمعية وهكذا نرى أن البيئة السياسية والاجتماعية فى الجزائر كانت مؤهلة لاحتضان بذرة جمعية العلماء المسلمين بعد أن هيأت التيارات السابقة التربة النفسية لذلك ، وهكذا لم تجد الجمعية صعوبة فى النمو والاخضرار وطرح الثمار .

ظروف إعلان الجمعية :

ويمكننا القول : إن أساليب فرنسا الاستفزازية ضد الإسلام كانت الدافع الرئيسى لإعلان جمعية العلماء المسلمين، من أهم المصادر التى تناولت تاريخ وفكر هذه الجمعية دراسة مازن صلاح حامد مطبقانى المعنونة بـ: «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها فى

---

(١) المصدر السابق ص ٧١ .

(٢) أحمد توفيق المدنى . مصدر سبق ذكره ص ١١٢ ، ص ١١٤ .

الحركة الوطنية الجزائرية» وهو ما ستعتمده بشكل رئيسى فى هذا المبحث مع غيره من المصادر المساعدة.

واعتمد الباحث على مصادر متعددة حول تأسيس الجمعية وانتهى إلى أن مصادر الجمعية تشير إلى أن التفكير فى العمل الإصلاحى المنظم يعود إلى بداية القرن العشرين وتحديدا عام (١٣٣١هـ - ١٩١٣م) ، حينما التقى عبد الحميد بن باديس بالشيخ البشير الإبراهيمى فى المدينة المنورة ومكثا ثلاثة أشهر يلتقيان كل ليلة بعد صلاة العشاء حتى الفجر يدرسان ما يمكن عمله إذا ما عادا إلى الجزائر للقيام بحركة إصلاحية ، وبعد انتهاء الحرب الأولى وعودتهما إلى الجزائر استمر الاتصال بينهما من أجل تحقيق هذا الأمل .

وكان الإبراهيمى قد عرض على ابن باديس فى (١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م) تأسيس جمعية الإخاء العلمى لتجمع علماء قسنطينه ولكن هذا المشروع لم يتم ، وكانت الخطوة التالية تأسيس صحيفة « المنتقد » لنشر الدعوة الإصلاحية ، ودعا ابن باديس فى تلك الصحيفة إلى اتحاد للعلماء وتجمعهم والاتفاق على خطة عمل لإصلاح الأوضاع الدينية والاجتماعية والتعليمية والسياسية : « لو اتحد العلماء على حقهم كما اتحد غيرهم على باطلهم لسعدت الأمة ، ونجت من بلاء كثير » ، ورد ذلك فى العدد الرابع عشر من المنتقد ، وفى العدد الثالث من الشهاب ٩ جمادى أول ١٣٤٤هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٩٢٥م ، قال : « أيها السادة العلماء المصلحون المنتشرون فى القطر الجزائرى إن التعارف أساس التآلف ، والاتحاد شرط النجاح فهلموا إلى التعارف والاتحاد بتأسيس حزب دينى محض » ، وفى العدد التاسع من الشهاب ٢١ جمادى الثانية ١٣٤٤هـ / ٢٧ يناير ١٩٢٦م يكتب المولود بن الحافظى مرحبًا بهذا الاقتراح لأن الحالة الدينية أصبحت سيئة جدًا لكثرة البدع والخرافات ، ثم تتوالى المقالات المؤيدة لإنشاء تجمع دينى فيكتب أحدهم « يجب تأسيس حزب إصلاحى دينى يكون مركزه العاصمة وله فرعان : أحدهما بقسنطينة ، والآخر بوهران »[1] . كما دعا الشيخ ابن باديس فى عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) الطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربى لندوة يدرسون فيها أوضاع الجزائر ، وما يمكن عمله

(١) مازن صلاح حامد مطبقانى : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها فى الحركة الوطنية الجزائرية ١٣٤٩-١٣٥٨هـ/١٩٣١-١٩٣٩م. دار القلم. دمشق. دارالعلوم بيروت . الطبعة الأولى ١٩٨٨م ص ٦٩ - ٧١ .

لإصلاح هذه الأوضاع ، وكان ممن لبى الدعوة البشير الإبراهيمى ، ومبارك الميلى ، والعربى بن بلقاسم التبسى ، ومحمد السعيد الزهراوى ، ومحمد خير الدين ، واتفقوا على خطة عمل تقضى بإنشاء المدارس الحرة للتعليم العربى والتربية الإسلامية ،والعمل على نشر الدعوة الإصلاحية فى المساجد الحرة ، واستخدام الصحافة والنوادى ، وإنشاء فرق الكشافة الإسلامية للشباب هادفين من ذلك كله : « إذكاء روح النضال فى أوساط الشعب لتحرير البلاد من العبودية والخنوع للأجنبى » كما يقول محمد الطاهر فضلاء فى كتابة التحريف والتزييف فى كتاب حياة كفاح .[1] .

وهناك روايات شتى حول تاريخ تأسيس الجمعية ، واختلفت الآراء حول ذلك التاريخ ، وإن كان قد حصر فى الفترة من ١٩٣٠م إلى ١٩٣٥م إلا أن مازن صلاح حامد مطبقاتى ، يؤكد بعد تفنيد الروايات بأنها تأسست عام ١٩٣١م وأنه ليس لأحمد توفيق المدنى – الذى جعل لنفسه الدور الرئيسى فى التفكير فى إنشاء الجمعية فى كتابة حياة كفاح فى الجزائر – دور فى التفكير فى إنشاء الجمعية وإن التفكير فى إنشاء الجمعية سبق وصول المدنى إلى الجزائر بسنوات طويلة وإن الذى كتب القانون الأساسى للجمعية هو البشير الإبراهيمى وليس المدنى كما ادعى .

ويرجع الشيخ البشير الإبراهيمى ظهور حركة الإصلاح الدينى وازدهارها فى الجزائر إلى دعوة الشيخ محمد عبده إلى الإصلاح بالإضافة إلى أن كتب علماء السلف مثل ابن تيمية ، وابن القيم الجوزية ، والشوكانى كان لها أثرها فى تهيئة البلاد لقبول الدعوة الإصلاحية ، بالإضافة إلى الثورة التعليمية التى أحدثها الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحية والتربية الصحيحة التى كان يأخذ بها تلاميذه . بالإضافة إلى عودة مجموعة من الجزائريين الذين كانوا يتلقون العلم فى الحجاز ، وتونس ، ومصر ، وغيرها من البلاد بعد الحرب العالمية الأولى وكذلك ظهور حقيقة الطرقية ويضيف صلاح حامد مطبقاتى إلى ما ذكره الإبراهيمى عوامل أخرى مثل ظهور حركة فكرية فى بداية القرن العشرين على أيدى بعض العلماء أمثال : عبد الحليم بن سماية ، والحفناوى ، والونيسى ،

---

(١) محمد الطاهر فضلاء ، التحريف والتزييف فى كتاب حياة الكفاح ، الطبعة الأولى قسطينة : دار البعث ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م ص ٢٩ .

وابن الموهوب ، وهذه وإن كانت لا ترقى إلى أهمية حركة الشيخ ابن باديس ، لكنها لاشك هيأت الشعب الجزائرى إلى قبول الإصلاح وتأييده[1] .

كما ذكر بعض المؤرخين عوامل أخرى مثل الصحافة الإصلاحية : « المنتقد » ، « الشهاب » ، و« الإصلاح » ، و« الفاروق » ، و« ذو الفقار » ، و« الإقدام » ، و« الجزائر » . والأربع الأخيرة كانت صحفًا سياسية إخبارية ، وبجهود فردية أما الثلاث الأولى فكان تلاميذ وزملاء بن باديس وراءها ، بل شارك ابن باديس عبد الحفيظ الهاشمى فى تأسيس جريدة « النجاح » التى ظلت موالية للإصلاح رغم خروج ابن باديس منها ، إلا أنها انحازت للإدارة الفرنسية كليا ، وعادت جمعية العلماء بعد تأسيس جمعية علماء السنة عام ١٣٥٢هـ (١٩٣٢م) التى أسسها الفرنسيون لمواجهة العلماء . بالإضافة إلى صحف : « الجزائر » لمؤسسها محمد السعيد الزاهرى فى عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) وكانت تحمل شعار « الجزائر للجزائريين » . وأيضًا صحيفة « صدى الصحراء » فى بسكرة ١٣٤٤ - ١٣٤٥هـ (١٩٢٥ - ١٩٢٦م) لصاحبها أحمد بن العابد العقبى ، وكذلك « البرق » وصدرت فى ٣ رمضان ١٣٤٥هـ (٢٧ مارس ١٩٢٧م) ، وكانت شديدة اللهجة ضد الطرقية ، وكانت تضم عددًا كبيرًا من الكتاب الصالحين أمثال العمودى ، والشيخ مبارك الميلى ، والعقبى إلا أنها عطلت فى ١٣٤٦هـ (سبتمبر ١٩٢٧م) وأيضًا صحيفة « الإصلاح » التى أصدرها الشيخ الطيب العقبى[2] .

وبالطبع كان لهذه الصحافة الإصلاحية دور هام فى تهيئة الأذهان والنفوس لاستقبال التغيير ، وإعادة بناء الشخصية الجزائرية ، بالإضافة إلى التقاء رجال الإصلاح فى مكاتب تلك الصحف ، وتبادل الرأى والتعود على العمل المشترك فى مجال محاربة الفساد الاجتماعى والسياسى والدينى .

وجاء عام ١٩٣٠م الموافق ١٣٤٩هـ ليخرج الحمية الإسلامية ويعيد صياغتها من جديد ، حيث احتفل الفرنسيون فيه على نطاق واسع بالعيد المئوى لاحتلالهم الجزائر ، وروى عن الكاردينال فيجيرى قوله : « جعل الجزائر مهدًا لدولة مسيحية يضيء أرجاءها نورة مدينة منيع وجها الإنجيل » وقال بمناسبة الاحتفال المئوى لاحتلال

---

(١) مازن صلاح حامد مطبقانى : مصدر سبق ذكره ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٢ ، ص٦٣ ، ص٦٤ .

الجزائر : « إن عهد الهلال فى الجزائر قد غبر وإن عهد الصليب قد بدأ وسيستمر إلى الأبد » .

كل هذا كان دافع ابن باديس للتحرك السريع إلى العمل الجماعى بدلاً من العمل الفردى ، والتفكير جديًّا لحشد الطاقات حتى يغدو الإبتلاع مستحيلاً أو عسيرًا على الأقل ، وبدأ يردد الشعار الذى جاء فى كتاب أحمد توفيق المدنى « الجزائر » وهو : « الإسلام ديننا ، والعروبة لغتنا ، والجزائر وطننا »[1] .

الاصول الفكرية للجمعية :

وتأسست الجمعية تبعًا لنظام الجمعيات المبنية أحكامه على أساس القانون الفرنسى والذى كان لا يسوغ لأى جمعية الخوض فى الأمور السياسية ولذلك كانت مبادئ الجمعية وقانونها الأساسى ، تراعى القانون ولكن الدعوة إلى الإسلام الصحيح تحمل كل ما حاول القانون الفرنسى أن يمنعه ، فالإسلام منهج حياة شامل وليس طقوسًا تعبدية . ويشير محمود قاسم فى كتابه الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية إلى الأصول الفكرية لجمعية العلماء الجزائريين ، بأنها تدعو إلى الرحمة بالضعيف وإرشاد الضال وإعانة المضطر ، وإغاثة الملهوف و ونصر المظلوم وأن القرآن هو كتاب الإسلام ، والسنة القولية والفعلية الصحيحة تفسير وبيان له ، وسلوك السلف والتابعين وأتباعهم تطبيق لهدى الإسلام . وفهمهم أصدق الفهم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة ..والتوحيد أساس الدين[2] .

ولخص الشيخ عبد الحميد بن باديس مبادئ الجمعية فى المعانى الآتية : « العروبة ، والإسلام ، والعلم ، والفضيلة » وقال : إن هذه المبادئ هى أركان جمعية العلماء التى تحفظ على الجزائريين جنسيتهم وقوميتهم ، كما روجت جمعية العلماء لمبادئها الإصلاحية من خلال الدعوة والكتب ، ومن أبرزها القانون الأساسى لجمعية العلماء الذى أوضح أن هذه الجمعية اتخذت من نادى الترقى مقرًّا لها ، وأنه لا يجوز لها الخوض فى المسائل

---

(١) د . محمد فتحى عثمان : عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية فى الجزائر المعاصرة . دار القلم - الكويت . الطبعة الأولى ١٩٨٧م ص ٦٩ .

(٢) محمود قاسم : الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرى ، دار المعارف ١٩٦٨م ص ٢٣ - ص ٢٦ .

السياسية لأنها مؤسسة طبقا لقانون الجمعيات المبينة بالقانون الفرنسى المؤرخ بغرة يوليو لسنة ١٩٠١م .

كما أوضح القسم الثانى غاية إنشاء هذه الجمعية التى تكمن فى محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة[1] .

وفى خطاب ابن باديس فى الاجتماع العام لجمعية العلماء فى آخر رجب سنة ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) بعد سبع سنوات من تأسيسها قال : « ... فسلام عليكم يا أعضاء جمعية المسلمين الجزائريين أجمعين ، وسلام على متهميكم فى المهتمن ، وسلام على منكوبيكم فى المنكوبين ، سجون واتهامات ونكبات ، ثلاث لا تبنى الحياة إلا عليها ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقة إلا على أسسها ، فاليوم وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث أثبتت الجمعية فى تاريخ الإسلام وجودها ، ونقشت فى قلوب أبناء المستقبل اسمها ... إن جمعيتكم أمينة على حفظ الإسلام ولغة الإسلام فى هذه الديار ، فإن قانونها الأساسى ينص على أنها جمعية تهذيبية إرشادية تحارب الآفات الاجتماعية وكل ما يحرمه صريح الشرع ، وتتذرع لغايتها بكل ما تراه صالحًا نافعًا غير مخالف للقوانين المعمول بها ، وأى وسيلة أقرب إلى تهذيب المسلمين ، وأى دواء أنجع فى علاجهم من دينهم الكريم ؟ وبأى شىء يفهمون هذا الدين ، ويصلون منه إلى ما فيه من تربية وتهذيب إلا بالعربية لغة القرآن العظيم ؟ وتعلم الإسلام ولغة الإسلام مباح فى أصل القوانين ، ولقد صدمت هذه القوانين الأصلية بمعاملات استثنائية رامية فى فهم جميع المسلمين إلى مقاومة الإسلام ولغة الإسلام ، وذلك هو المشاهد من آثارها فى التغليق والتعطيل ! ، لقد قامت الجمعية بالدفاع إزاء هذا كله ، وقامت معها جمع الهيئات أو جلها ، حتى تبين أن المسألة مسألة أمة لا مسألة الجمعية ، وأن المسلمين لا يسكتون عن تعلم دينهم ولغة دينهم بحال ، وقد جيشَ على الإسلام من ناحية أخرى ، فوضعت الذاتية الإسلامية فى المساومة ، فرفعت الجمعية صوتها بالتحذير والتبيين ، ووجدت من ممثلى الأمة آذانا صاغية ففشلت المساومة وهكذا لا تفتأ جمعيتكم إن شاء الله دائبة فى سبيل الإسلام ، والعربية لغة الإسلام فى دائرة القانون العام ، ولو لحقها فى ذلك كل ظلم

---

(١) د . نبيل أحمد بلاسى . مصدر سبق ذكره ص ٦٢ - ص ٦٣ .

وعدوان ، ﴿ والله يعلم أعمالكم ؛ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ (سورة محمد ٣٠ ، ٣١)[١] .

وهكذا يتضح من خطاب ابن باديس أن الهدف الأساسى هو الحفاظ على الدين الإسلامى ولغته ، وعدم المساومة على الذات الإسلامية ، مهما تكن العواقب وأصول دعوة العلماء انبثقت عن ثلاثة اتجاهات هى :

١ – **الاتجاه الدينى** : ونادى بالإسلام الذى وضعه الله عز وجل لهداية عباده ، وقد اختار الله عز وجل هذا الدين لتسعد به البشرية لأنه يدعو إلى الأخوة بين البشر ، والمساواة بين جميع الأجناس ويعدل بينهم ، ويحرم جميع ألوان الظلم ، ويدعو إلى التسامح مع الأديان الأخرى ، والتصدق بأموال الأغنياء إلى الفقراء ، ورحمة الضعيف ، وتعليم الجاهل ، ويرشد الضال ، ويغيث الملهوف ، وينصر المظلوم ، ويحرم الاستعباد والظلم بجميع أشكاله ، كما أنه يدعو إلى الشورى[٢] .

٢ – **الاتجاه الاجتماعى** : اتخذ العلماء من القرآن والسنة ومسلك الصحابة والتابعين ، وأتباع التابعين مثلاً أعلى للتعامل فى الحياة ، واعتبر العلماء الطرق الصوفية بدعة لم يعرفها السلف الصالح واعتبروها من أنواع الشرور فى الدنيا لأن فيها تجميد للعقول ، وإماتة للهمم ، وقتل للشعور ، كما دعا العلماء إلى الرحمة بالجاهلين والمغرورين ومحاربة المعاندين المستغلين[٣] .

٣ – **الاتجاه السياسى** : برغم عدم قيام العلماء بالخوض فى السياسة منذ البداية فإنهم دعوا إلى وحدة الصف ، وهاجموا الطرق الصوفية . ومحاولة فرنسا فرض قانون التجنيد الإجبارى ، ودعوا إلى تمثيل الجزائريين داخل المجالس الفرنسية بما فى ذلك المجلس الوطنى الفرنسى مما أدى إلى اصطدامهم بالإدارة الفرنسية[٤] .

وعلى الرغم من أن الفصل الثالث من القسم الأول من القانون الأساسى للجمعية ينص على « لا يسوغ لهذه الجمعية بحال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل فى المسائل السياسية » . إلا أن الكتاب الغربيين أدركوا حقيقة الإسلام وفهم أهداف الجمعية فنجد

---

(١) د . محمد فتحى عثمان . مصدر سبق ذكره ص ٧١ ، ص ٧٢ .
(٢) د . تركى رابح . مصدر سبق ذكره ص ٢٠٢ .
(٣) د . نيل أحمد بلاس . مصدر سبق ذكره ص ٦٣ ، ص ٦٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٦٤ .

« ليون كان براون » فى مقالته حول الحركة الإصلاحية الإسلامية فى شمال أفريقيا يقول : « وبالرغم من التصريحات المختلفة التى تنفى وجود أهداف سياسية توحى بأن اهتمام المصلحين بالأهداف القومية كان ضعيفًا ، ولكن يجب رفض هذه الفكرة لا لأنها غير صحيحة ، بل لعدم فهم الدوافع النفسية وراء الإصلاح الإسلامى »[1] .

كما فهمت السلطات الفرنسية حقيقة أهداف الجمعية وخطورتها ،ففى وثيقة بعنوان « الجزائر فى نصف قرن » صدرت عام ١٣٧٣هـ (يناير ١٩٥٤م) عن الإدارة العامة للشئون السياسية والخدمات العامة ،التابعة للحاكم العام للجزائر نجد تقريرًا لمحافظ الشرطة « بُرح بو عريرج » يقول : « إن ازدياد نفوذ العلماء هو الخطر الحقيقى على السيادة الفرنسية لأن هدفهم هو تكوين الإنسان المسلم .. » .

ويقول تقرير لمتصرف « فج مزالة » .. ، وعلى الرغم من أنها (الجمعية) تدعى أنها لا سياسية ، فإنها نواة للأحزاب الوطنية ،وقاعدة ينمو فوقها الشعور الوطنى ، ويؤكد تقرير سرى فرنسى آخر ، إن أول عمل فى برنامج الجمعية الإصلاحى ، التصدى للقوى العاملة مع الاستعمار والمؤيدة له ، ويعزو التقرير إلى الشيخ العقبى قوله : « يوم تتخلص أفكاركم من الطرقية سيكون من السهل عليكم المطالبة بالاستقلال » . ويؤكد هذا تقريرا أعده مركز الإعلام بولاية الجزائر إذ يقول : « إن الهدف الرئيسى الذى عمل له العلماء هو إحياء الدين الإسلامى فى صورته النقية ، والمحافظة على عروبتهم وشخصيتهم الإسلامية ، ولأجل ذلك فقد وقفوا فى وجه الطرقية والمتفرنجين الذين تمسكوا بالثقافة الفرنسية ، ويشير مقال فى إحدى المجلات الفرنسية المتخصصة أن التوجه السياسى للجمعية كان دائما مستترًا خلف التفكير الدينى المرن ، فالعلماء لم يناقشوا الأمور السياسية علنًا ، كما أنهم لم يرشحوا أى شخص فى الانتخابات – على الأقل بصورة رسمية – لكن مساعدتهم السرية كانت حاسمة فى حالات كثيرة ، وهذا الابتعاد الاختيارى عن السياسة لم يقلل من حماس وإرادة العلماء وبالتالى نجد صدى ذلك فى صحافتهم التى سارت على نفس الخطة[2] .

ويؤكد الدكتور صلاح العقاد فى كتابة « الجزائر المعاصرة » إن الجمعية لم تتخل عن دورها السياسى ، رغم أنها تأسست لأغراض دينية محضة .[3]

---

(١) مازن صلاح حامد مطبقانى . مصدر سبق ذكره ص ٨١ .

(٢) المصدر السابق ص ٨١ ، ص ٨٣ ، ص ٨٤ .

(٣) د . صلاح العقاد . الجزائر المعاصرة ، معهد الدراسات العربية ١٩٦٣/١٩٦٤م القاهرة ص ٢٨ .

بينما يشير تركى رابح إلى بعد نظر الجمعية وعمق تفكيرها لأنها لم تسلك طريق التصدى المباشر للقوى الاستعمارية فى مجال التحرك السياسى ، لأن الجزائر كانت خاضعة لأحكام القانون الفرنسى ، فكيف كانت ستطالب بالاستقلال وهى لم تحقق شخصيتها العربية والإسلامية بعد[1] .

وإذا كان القانون الأساسى للجمعية لم ينص صراحة على المحافظة على الشخصيةالجزائرية ، فإن مقالات أعضاء الجمعية كانت تدعو لذلك ، بل إن شعار المدارس التى أسستها الجمعية كان : « الإسلام دينى والعربية لغتى والجزائر وطنى » .

وقد كانت الدعوة إلى رفض الاندماج تندرج فى نظر فرنسا تحت النشاط السياسى ، ومع ذلك كان الإفتاء بأن المتجنس مرتد لا يحق له أن يدفن فى مقابر المسلمين وينطبق ذلك على كل من استأنف دعواه أمام قاض مدنى بعد أن حكم عليه قاض شرعى[2] .

ويشير على مراد فى دراسته عن الإصلاحيين المسلمين فى الجزائر فى سنة ١٩٢٥ – ١٩٤٠م إلى أنه فى الوقت الذى كان التأكيد فيه على القومية الجزائرية يعد مظهرًا من مظاهر الشعور المعادى لفرنسا ،وأن كل من يدعو إلى القومية يهتم بمعاداة فرنسا ، ومحاولة المساس بالسيادة الفرنسية ، كان الإصلاحيون لا يخافون من الدعوة إلى القومية أى جنسيتهم الأصلية ، وبالتالى معاداة سياسة الاندماج وهكذا فمنذ عام ١٣٤٤هـ(١٩٢٥م) فإن ابن باديس وزملاءه قد جعلوا دعايتهم تحت شعار الإسلام ، الذى كان يعبر عن الروح الوطنية ويدعو إلى الحفاظ على الخصائص القومية ، وهذان المبدءان يمثلان جوهر العقيدة السياسية للحركة الإصلاحية .

وبذلك يتضح أنه برغم خلو القانون الأساسى من نص الاشتغال بالسياسة فإن ذلك لم يكن ليحول بينها وبين ذلك ، تمشيا مع المفهوم الصحيح للدين الإسلامى الذى لا يفصل بين الدين والسياسة ، وكذلك فإن القانون الأساسى كان ملزمًا بالقانون الفرنسى الخاص بالجمعيات الدينية الذى يمنع التدخل فى السياسة ، ولكن الجمعية أرادت أن توضح دعوتها ، فقام ابن باديس بنشر أصول الدعوة إثر صلاة الجمعة يوم ٤ ربيع الأول ١٣٥٦هـ مايو ١٩٣٧ ونشر فى كتيب مع القانون الأساسى مما يؤكد أنه امتداد له

---

(١) مازن صلاح حامد مطبقانى ، مصدر سبق ذكره ص ٩٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٦ .

وشرح وتفصيل للقانون الأساسى ، ويشير كاتب فرنسى إلى أن أصول دعوة الجمعية كانت مبثوثة فى صحافة الجمعية منذ تأسيسها ، وكل ما حدث أنها جمعت فى كتيب واحد[1] .

أما أصول دعوة الجمعية ، فتعطى صورة عن برنامج الجمعية الدينى والسياسى والاقتصادى ، ففى الفصل الثانى جاء أن الإسلام دين البشرية الذى لا تسعد إلا به وذلك لأنه يحرم الظلم ويفرض العدل بين جميع الناس ، ويشرك الفقراء مع الأغنياء فى الأموال مثل القراض والمزارعة والمفارسة ، مما يظهر التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضى والأموال ، كما أنه يحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه ، ويجعل الحكم شورى ليس فيه استبداد ولو لأعدل الناس .

بتحليل ذلك يتضح أن الجمعية رسمت برنامجًا اجتماعيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا يُفحم المؤرخين الذين يدعون أن أهداف الجمعية كانت المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية ، دون أن يكون لها برنامج اجتماعى أسوة بالأحزاب السياسية .

ويؤكد الباحث الكندى « أندرى ديرلك » بأن ابن باديس وقف بصلابة ضد الأفكار الاشتراكية التى وجدت جوًّا مشجعًا فى الجزائر ، وذلك بالدعوة إلى المبادئ الاجتماعية الإسلامية التى أوضحها القرآن بصراحة حين جعل الناس سواسية وأن الإسلام عندما يطبق بشكل صحيح يقضى على الفروق الطبقية ، ويوجد مجتمعًا متجانسًا لا أثر للصراعات الطبيعية فيه[2] .

وهكذا نرى أن جمعية العلماء مارست دورًا هامًّا فى تأكيد انتماء الجزائر الإسلامى وخاضت المعارك على كل الجبهات ضد الاحتلال الفرنسى رافعة شعار ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ . وكان هذا هو الطريق الصحيح على طريق التحرير وهناك تساؤل يثار حول منح السلطات الفرنسية الترخيص الرسمى لجمعية العلماء بعد أيام من تقديم طلب الترخيص حيث حصلت الجمعية على الترخيص فى ٤ صفر ١٣٤٩هـ الموافق ٢٢ مايو ١٩٣١م ، ونشر فى الجريدة الرسمية بتاريخ ١٣ محرم ١٣٤٩هـ / ٣١ مايو ١٩٣١م يشير أحد المؤرخين إلى ثلاثة أسباب لذلك ، أولها أن الاحتفال المئوى

---

(١) المصدر السابق ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٩ .

وما صاحبه من استفزاز لعواطف الشعب الجزائرى جعل السلطات توافق على إنشاء الجمعية لتهدئة رد فعل الشعب الجزائرى ، وثانيها هو تسامح مدير الشئون الأهلية « مسيو ميرانت » أما السبب الثالث فيبدو فى انضمام جماعة من غير الإصلاحيين من رؤساء الزوايا والموظفين الدينيين ، قد يؤدى إلى السيطرة على الجمعية ، وبالتالى احتواء الحركة الإصلاحية .وهناك سبب آخر هو اعتقاد فرنسا أن العلماء لا يشكلون خطرًا عليها ،ويؤكد هذا مؤرخ أمريكى درس الوثائق الفرنسية الموجودة فى الأرشيف الفرنسى حيث ذكر أن الأجزاء المبعثرة من تقارير إدارة شئون الأهالى للسنوات من ١٣٤٣ - ١٣٤٩هـ (١٩٢٤ - ١٩٣٠م) ، لم تر أى خطورة فى حركة الإصلاح ، فقد كانت دوائر الشرطة خلال عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) تهتم بالنشاط المتزايد للشيوعية أكثر من اهتمامها بالعلماء ولكن الاهتمام بالشيوعية لم يمنع فرنسا من مراقبة حركة الإصلاح التى بدأت بعد الحرب العالمية الأولى وإلصاق تهمة الشيوعية بالعلماء .

واستمرت الإدارة الفرنسية فى الجزائر تقلل من شأن حركة الإصلاح ، ففى تقرير صدر عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م) نجده يصرح بثقة بالغة أن الحركات الوطنية فى العالم الإسلامى المعاصر ليس لها أى تأثير فى الجزائر ، فالشعب الجزائرى مازال غافلاً عنها وأن كل اهتمامه منصب على حاجاته المادية فقط ، وفى تقرير آخر صدر عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٨م) يؤكد بأن نشاط ابن باديس ليس له أبعاد سياسية ولا يتعدى حدود النظريات[1] .

انجازات الجمعية

إذا أردنا تقييم أعمال هذه الجمعية لأفردنا لذلك أكثر من كتاب فهى قد عملت فى كل ميادين النهضة الوطنية ، وحرست القيم ، وحافظت على مقومات الشعب الجزائرى الدينية والقومية وألبت أبناء الشعب على مظاهر الجهل والتخلف والأمية وعلى الحكم الاستبدادى .

ويقول الشيخ محمد الطاهر فضلاء تلميذ الشيخ ابن باديس وعضو الجمعية فى ندوة أقامتها مجلة « العالم » حول الجمعية بمناسبة إعادة نشاطها : « أول شىء وضعته جمعية العلماء مبدأ لحركتها وهدفا لأعمالها هى التربية والتعليم ، وهما معًا مجتمعان فى صعيد

---

(١) المصدر السابق ص ٩٠ - ص ٩٢ .

واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر إلا فى حال التخصيص اللفظى أو المعنوى ، فالتعليم فى نظر الجمعية لا يكون مفيدًا للمتعلم والمجتمع إلا إذا امتزج مع الطريقة التربوية المثلى فى تكوين المتعلم تكوينًا عمليا صالحًا وكاملاً لعملى الدين والدنيا ، مؤتلفين فى عدل ووئام وتفاعل . كما أن التربية وحدها مهما تذرعت بطرق العلم والتجربة من حيث وسائلها وطرائقها لا يمكنها الوصول إلى تكوين الفرد الكامل ، ما لم تأخذ العلم منهاجًا يضيء لصاحبها درب الحياة ،لهذا نجد جمعية العلماء منذ نشأتها ، قد سعت السعى الحثيث لفتح الكتاتيب والمدارس الحرة ثم عمرت هذه الكتاتيب والمدارس طوال ساعات النهار ، وأولى ساعات الليل بالنشء الصغير فى أولى مراحله ، وبالشباب فى أول ربيعه ، أولئك فى ساعات النهار ، وهؤلاء فى الساعات المسائية الأولى ، تعلم الكل القراءة والكتابة العربية ، وتعبئ الكل وتعدهم الإعداد الكامل للتضحية والفداء »[1] .

وركزت الجمعية نشاطها على مقاومة التبشير ، وسياسة الفرنسة والإدماج فعملت على نشر العربية والثقافة الإسلامية ،بالإضافة إلى محاربة الفكر الخرافى ، وبسبب اتساع نشاط هذه الجمعية أخذت السلطات الفرنسية فى محاربتها وتضيق الخناق عليها ،فأصدرت بتاريخ ١٩٣٨/٧/٨م قرارًا يمنع أى شخص من تأسيس مدرسة إلا برخصة خاصة من إدارة الاحتلال ، وبموجب هذا القانون تم إغلاق عدد كبير من المدارس ، ومحاكمة أصحابها .

وكان وزير الداخلية الفرنسى قد أصدر سنة ١٩٣٣م قرارًا يقضى باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية ، ويمنع الخطب والوعظ فى المساجد على غير الموظفين فى الإدارة الفرنسية . ومع ذلك فقد استطاعت جمعية العلماء زرع وسائل المقاومة للسياسة التعليمية الاستعمارية فى الجزائر بإقامتها للمدارس الحرة العربية ، التى سنعرف انتشارًا مهمًّا خلال المرحلة الثانية من مراحل السياسة التعليمية الفرنسية فى الجزائر ، فقد نجحت الجمعية فى إنشاء ١٨١ مدرسة سنة ١٩٥٤م منها ٥٨ ثانوية ، تضم نحو ٤٠ ألف تلميذ ، ربما أن السلطات الفرنسية كانت لا تسمح بالتعليم الجامعى العربى الحر فكان هؤلاء التلاميذ يلتحقون بجامعات تونس والمغرب ومصر : فقد كان بالزيتونة نحو ألف طالب جزائرى وفى المغرب ١٢٠ وذلك بجامعة القرويين ، وفى الأزهر حوالى ١٥٠ وكان بالجامعات

---

(١) على بواراوى ، جمعية العلماء المسلمين فى الجزائر تستأنف نشاطها فى ذكراها السبعين مجلة العالم ١٩٩١/٧/٢٧م ص ٣٢ .

الفرنسية ٥٨٩ طالبًا جزائريًا فبرغم الحصار الذى ضربته فرنسا على اللغة العربية والثقافة العربية والإسلامية فإن نخبة معربة أخذت تتكون بوتائر سريعة ابتداء من الحرب العالمية الثانية إلى جانب النخبة « المفرنسة » التى كان يفرزها التعليم الفرنسى بالجزائر ، وسيكون لهذا الانقسام الثقافى فى صفوف النخبة المتعلمة أثر كبير فى مستقبل الجزائر المستقلة كما سنرى[1] .

ويذكر أحمد توفيق المدنى أنه بعد وفاة ابن باديس وتولى البشير الإبراهيمى الجمعية أسست الجمعية حوالى ١٦٥ مدرسة عربية حرة لتعليم العربية والدين والتاريخ الإسلامى ، وبلغ عدد تلاميذها سنويا ما يزيد عن الخمسين ألفا بين ذكور وإناث ، وتم إنشاء معهد ثانوىٌ للمتخرجين من هذه المدارس فى قسنطينة أطلق عليه « معهد ابن باديس »[2] .

أما الدكتور نبيل أحمد بلاسى ، فذكر أن المدارس التى أقامتها الجمعية بلغت فى سنة ١٩٤٨م حوالى ١٤٠ مدرسة غطت معظم مدن وقرى الجزائر ، وقد نشرت جريدة البصائر المتحدثة بلسان الجمعية قائمة بأسماء مدارسها – عن العام الدراسى ١٩٥٠ – ١٩٥١م وكان ذلك فى مجال التعليم الابتدائى ، أما تلاميذ معهد عبد الحميد بن باديس فى عام ١٩٥٥م فقد بلغوا ٩١٣ تلميذاً[3] .

وهناك ٣ مراحل لجهود العلماء التعليمية الأولى من ١٩٣١ – ١٩٣٩م تم فيها تأسيس العديد من المدارس والمساجد والنوادى فى أهم المدن والقرى الجزائرية التى وصلت إليها دعوتها ، وامتد النشاط إلى فرنسا حيث تقيم هناك جالية جزائرية بلغ عددها مئات الآلاف كانت على وشك الذوبان فأوفدت الجمعية مجموعة من العلماء برئاسة الفضيل الورتلانى لانتشال الجالية من وهدة الكفر والذوبان وبدأت عملها الدعائى سنة ١٩٣٦م ، وتمكنت الجمعية من تأسيس ثلاثين مركزًا لها فى باريس وقام العلماء بإلقاء المحاضرات التوجيهية فى مبادئ الإسلام وتاريخه وتلقين أبناء العمال الجزائريين مبادئ القراءة والكتابة ، وتعليمهم تاريخ وجغرافية الجزائر . أما المرحلة الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٤م) تجمد نشاط الجمعية مثل سائر الأحزاب الجزائرية نتيجة للحرب العالمية الثانية ، أما فى المرحلة الثالثة ١٩٤٤ – ١٩٥٦م وقد توقف نشاط الجمعية فى نوفمبر

---

(١) د . محمد عابد الجابرى ، مصدر سبق ذكره ص ١٠٩ ، ص ١١٠ ، ص ١١١ .

(٢) أحمد توفيق المدنى ، مصدر سبق ذكره ص ١٨٧ .

(٣) د . نبيل أحمد بلاسى ، مصدر سبق ذكره ص ٦٨ ، ص ٦٩ .

١٩٥٤ ، وذلك بسبب اندلاع حرب التحرير ، وقيام سلطات الاحتلال بحل كل المنظمات الوطنية بما فيها جمعية العلماء ، وفى هذه المرحلة حققت الجمعية إنجازات كبرى أثارت فزع الاستعمار[١] .

ولم تجد فرنسا بدًّا من ممارسة أساليب الاضطهاد ، ضد الجمعية وتشويه سمعتها فقامت بسلسلة من الإجراءات ضد التعليم العربى فتم إغلاق مدرسة الحديث إحدى أكبر إنجازات الجمعية ،وحكم بالسجن على الكاتب العام لإحدى شعب الجمعية بدعوى شتم قائد بناحيته ، توجيه الإتهام لمسعود بن القون أمين نادى الإرشاد بسرقة عنقود عنب واتهامه بالاستحمام عاريًا فى صهريج الحكومة ،اتهام البشير الإبراهيمى بالتحريض على إقامة المظاهرات بدون إذن ، منع بعض العلماء من التدريس مثل بلقاسم ابن ارواق وإرسال منشور إلى المسئولين فى المناطق الجنوبية بالجزائر الخاضعة للحكم العسكرى فى ربيع أول ١٣٥٧هـ مايو ١٩٣٨م يطلب إلقاء القبض على كل من ينتسب لجمعية العلماء ، أو من يفد إليهم من الجمعية ، إغلاق الكثير من المدارس الإسلامية واعتقال العلماء أمثال : عبد العزيز بن الهاشمى ، وعلى بن سعد ، عبد القادر الباجورى ، محمد الكامل ، منع أعضاء الجمعية أو من له صلة بها من الحج عامى ١٣٥٦هـ و١٣٥٧هـ (١٩٣٨ و ١٩٣٩م) ،حصار وادى سوف لمدة ٣ أسابيع ، واعتقال عدد كبير من المعلمين ، ومؤيدى الإصلاح فى ١٧ صفر ١٣٥٧هـ الموافق ١٨ أبريل ١٩٣٨م ، بالإضافة إلى اتهام العقبى بمحاولة اغتيال الشيخ كحول[٢] .

ويمكن القول هنا أن الجمعية نجحت فى تهيئة الشعب الجزائرى ذهنيًّا وحضاريًّا ودينيًّا وقوميًّا لدخول حرب التحرير سنة ١٩٥٤م وهو على وعى تام بماضيه وحاضره وشخصيته ومصيره .

وخير تعبير عن هدف الجمعية هو قالته مغنية الأزرق « تطهير البيت لتهيئة البلد للقومية »[٣] ، والقومية فى الجزائر لا تعنى المفهوم القومى العام ولكنها تعنى الإسلام والوطنية معًا فى إطار الشخصية الجزائرية العربية .

---

(١) المصدر السابق ص ٦٦ ، ص٦٧ .
(٢) مازن صلاح حامد مطبقانى . مصدر سبق ذكره ص ٢٢٤ .
(٣) مغنية الأزرق . مصدر سبق ذكره ص ٧٣ .

ويرى الدكتور محمد ناصر أستاذ الأدب العربى بجامعة الجزائر أن المهمة الأولى للجمعية كانت التعبئة الروحية والنفسية والأخلاقية إدراكًا منها أن أى إصلاح يراد له نجاح ، فإنما ينبغى أن يبدأ بالإصلاح الداخلى لينطلق بعد ذلك إلى الإصلاح الخارجى ، ومن أسباب نجاح الجمعية إيمانها العميق بأن الإعداد الروحى هو السلاح الذى يقاوم الاستعمار اللاتينى الفرنسى استعدادًا للمجابهة الميدانية العسكرية إذ لا يكفى لنجاح المعركة أن نرفع السلاح فى وجه العدو دونما إعداد إيمانى يضمن للمقاوم والمجاهد النفس الطويل والصبر الجميل ، والثبات الذى لا يتزعزع مهما يكن رد فعل الاستعمار قويًا شرسًا ، وذلك ما حصل فعلاً ما بين نوفمبر ١٩٥٤م ويوليو ١٩٦٢م حين انطلقت الرصاصة الأولى باسم « الله أكبر »[١] .

ونجحت الجمعية أيضًا فى وقف دعاية التجنس ونبذ الدين وأحكامه ، وانقاد النوابُ السياسيون طوعًا أو كرهًا ،إلى ما أصبح يدعى « الإحراز على الحقوق الفرنسية دون التنازل عن الحالة الشخصية الإسلامية ، وأصبح النواب من دعاة التفرنس بالأمس ، ينادون باستقلال الدين الإسلامى عن الحكومة ، وبإدخال العربية إجباريًا ضمن المناهج الدراسية وابتعد الشعب عن ألاعيب الصوفية وترهاته ، مفضلا الدين الخالص[٢] .

وعند إعلان الحرب العالمية الثانية رفضت جمعية العلماء وأعضاء حزب « الشعب » إعلان الولاء لفرنسا ، وكان النواب والموظفون ،ورجال الطرق الصوفية يؤيدون فرنسا . ولذلك حلت الحكومة حزب الشعب وزجت ببعض أعضائه فى السجن ، أما بالنسبة لجمعية العلماء فقد نفت السلطات الفرنسية البشير الإبراهيمى إلى « آفلو » بالجنوب الجزائرى وفرضت الإقامة الجبرية على ابن باديس بالإضافة إلى بعض العلماء الذين كانوا لا يزالون فى السجون ، كما قامت الجمعية نفسها بإيقاف صحفها وهو الأمر الذى استغله الصوفيون بإطلاق الشائعات حول تأييد العلماء لفرنسا فى الحرب ، ولا يوجد دليل واحد على ذلك .

ولعبت جمعية العلماء أيضًا دورًا هامًا للتقريب بين وجهات النظر السياسية الجزائرية ، وفى هذا الإطار دعا الشيخ بن باديس إلى عقد المؤتمر الإسلامى الأول سنة ١٩٣٦ لبحث جوانب القضية الجزائرية والوصول إلى حل يخرج الأمة من حالة اليأس ، ولاقت

---

(١) على بوراوى . مصدر سبق ذكره ص ٣٤ .

(٢) أحمد توفيق المدنى . مصدر سبق ذكره ص ١٨٥ .

هذه الدعوة قبولاً ، من معظم التوجهات والتنظيمات السياسية التى اتفقت على عقد المؤتمر يوم ٧ يوليو ١٩٣٦ بنادى الترقى بالعاصمة وشارك فيه اتحاد المسلمين المنتخبين ، والحزب الشيوعى ، والحزب الاشتراكى ، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وبعض المستقلين ولم يقاطعه سوى « نجم شمال أفريقيا » وأسفر المؤتمر عن عدد من المطالب لم تخرج عن المساواة بين الجزائريين والفرنسيين مع المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية ، وتقرر سفر وفد من المؤتمر لعرض تلك المطالب على حكومة الجبهة الشعبية تحت رئاسة مسيو ليون بلوم اليهودى الفرنسى وفاجأت هذه الحكومة الوفد الجزائرى بموافقتها على مطالبها بشرط التنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامى مما أدى إلى فشل المؤتمر[1] .

وقد أثار اشتراك العلماء فى هذا المؤتمر انتقادات كثيرة لم تزل تردد حتى الآن لأنها تدعو للمحافظة على الشخصية الجزائرية وتحارب سياسة الدمج فكيف تشارك فى مؤتمر يطالب بالمساواة .

وبرغم ذلك لبت الجمعية دعوة الدكتور بن جلول لعقد المؤتمر الإسلامى الثانى سنة ١٩٣٧ وشارك فيه أيضًا كل القوى السياسية عدا « النجمة » وتقرر تشكيل وفد برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس للتفاوض مع حكومة بلوم على المطالب الآتية :

١ – إلغاء كل القوانين والقرارات الاستثنائية .

٢ – أن تلغى الولاية العامة الجزائرية ، وأن تكون الجزائر تابعة لفرنسا رأسًا .

٣ – أن تكون الهيئة الانتخابية بالجزائر واحدة يشترك فيها المسلمون والأوربيون .

٤ – أن يكون للمسلمين الجزائريين نواب يمثلونهم بالبرلمان الفرنسى .

٥ – أن يكون الجزائريون فرنسيين بصفة تامة ، مع بقائهم متمتعين بالحقوق الشخصية الإسلامية .

٦ – الاستقلال التام للدين الإسلامى ، كاستقلال الأديان الأخرى ، والانفاق عليه من أموال الأوقاف المسترجعة التى اغتصبتها فرنسا منذ أوائل عهد الاحتلال .

٧ – اعتبار اللغة العربية لغة دراسة بالمدارس الجزائرية[2] .

---

(١) د. نبيل أحمد بلاسى . مصدر سبق ذكره ص ٧٦

(٢) أحمد توفيق المدنى ، مصدر سبق ذكره ص ٢٥١

ولكن الحكومة الفرنسية قدمت للوفد مشروعًا مقابلاً عرف باسم « بلوم وفيوليت » ، وقد فرق هذا القانون بين الحقوق السياسية التابعة بصفة المواطن وبين الحقوق المتعلقة بالأحوال الشخصية ، وفتح الطريق للإدماج التدريجى مع فرنسا[1] وأثناء المفاوضات قال أحد الوزراء لابن باديس تذكر أن فرنسا معها المدافع ! فأجابه ابن باديس : « وتذكر أنت ، أن الجزائر معها الله»[2] وبذلك فشلت المفاوضات بعدما رفض العلماء المشروع الفرنسى الذى لم يؤيده سوى اتحاد المسلمين المنتخبين ، وادى فشل المفاوضات إلى انتقال الحركة الوطنية الجزائرية إلى مرحلة جديدة اتفقت فيها كل الآراء على الاستقلال دون الاتفاق على وسائل تحقيقه .

وموقف جمعية العلماء السابق لا يمكن اعتباره دعمًا للاندماج ، ولكنه فى الحقيقة الحصول على حقوق الجزائريين ، ما دامت فرنسا تعتبر الجزائر قطعة منها فما الضير بالمطالبة بالمساواة إذن ، ما دام الأمر الواقع هكذا ، ولكنها فى نفس الوقت لم تفرط فى الإسلام ولا اللغة العربية ، وكان ذلك واضحًا فى المطالب التى عرضها ابن باديس بالإضافة لإعلانه مرات عديدة « إننا لا نريد اندماجًا ، ولا نحن نريد استقلالاً » وهذا يعنى أنه كان يعى الظروف الدولية المحيطة به ، ويعرف القدرات المحلية التى يحاول أن يحركها وهو الأمر الذى كان يصعب عليه فيه الاستقلال قبل تهيئة البلاد واستعادة الشخصية الجزائرية وإعادة تركيبها إسلاميًا وعربيًا وجزائريًا من جديد .

والدليل الآخر على سعة أفق الجمعية أن المستوطنين وأنصارهم فى جهاز الإدارة الفرنسى ، وأيضًا رؤساء البلديات هددوا بالاستقالة الجماعية ، وكذلك رؤساء البلديات إذا أقر البرلمان الفرنسى المشروع الذى يطالب بالمساواة لأنه خطوة تحرزها الحركة الوطنية الجزائرية ، قد تتلوها خطوات أخرى مما يهدد مصالح المستوطنين .

فما دام الاستقلال لم يكن متاحًا آنذاك فما ضير المساواة مع الاحتفاظ بحقوق الشخصية الجزائرية الإسلامية والعربية .

وكان من ثمار المؤتمر الإسلامى المنعقد فى ٧ يونيو ١٩٣٦ تأسيس جمعية شباب المؤتمر الإسلامى ، كمنظمة سياسية للعمل بكل الوسائل العلنية لتحقيق عريضة المؤتمر ، وتوحيد جميع الشباب ، ورغم أن الأعضاء المؤسسين لهذه الجمعية لم يكونوا من قادة

---

(١) د . نبيل أحمد بلاسى . مصدر سبق ذكره صـ ٧٧

(٢) أحمد توفيق المدنى . مصدر سبق ذكره ص٢٥٣.

جمعية العلماء ، إلا أنه حين عقد الاجتماع العام فى ٧ جمادى الثانية ١٣٥٦ هـ الموافق ١٥ أغسطس ١٩٣٧ تم اختيار الفضيل الورتلانى أحد تلاميذ ابن باديس رئيسًا ، وكان من أولى أعمالها إرسال برقيات الاحتجاج ضد المظالم الواقعة فى فلسطين ، وتأسيس لجنة من الشباب لإغاثة فلسطين ، ثم أعلن الجميع الثقة التامة والتقدير الذى لا حد له لما تقوم به جمعية العلماء من نشر مبادئ الإسلام الصحيح ، وما تسديه لهذه الأمة من الآراء الحكيمة . ويبدو أن عدم إعلان أى صلة بين الجمعية وجمعية العلماء يرجع للحذر من السلطات الفرنسية بالامتناع عن إصدار الترخيص المطلوب ، وتشير المصادر أيضًا إلى أن الأمين العمودى تولى أيضًا رئاسة هذه الجمعية التى ضمت الآلاف بعد تأسيسها على يد رشيد قرطبى وحموده أحمد وغيرهما .

وكانت تتلخص نشاطات تلك الجمعية فى عقد المؤتمرات الشهرية المنظمة ، واجتماعات للدعاية السياسية ، والجولات داخل القطر ، وكذلك إعطاء دروس فى اللغة العربية للأطفال وماسحى الأحذية ، وتميز تنظيم الجمعية بميله إلى الطريقة العسكرية حيث يرتدى الأعضاء القمصان الزرقاء الفاتحة اللون فى عروض الجمعية ، كما أنهم جعلوا طريقة اتصال المسئولين بالأعضاء بالطريقة العسكرية ، ولم يخرج برنامجهم السياسى عن برنامج المؤتمر ، وقد رفضوا إعلان الولاء لفرنسا عام ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) مثلهم فى ذلك مثل جمعية العلماء ، كما أن فكرة الاستقلال وإن لم تلق القبول من جميع الأعضاء إلا أنها كانت تطرح دائمًا فى اجتماعات قادة الجمعية مما جعل وجود تقارب بينهم وبين حزب الشعب رغم الاختلاف فى الأساليب السياسية[1] كما أقامت الجمعية أيضًا جمعية التربية والتعليم الإسلامية لتعنى بوجه خاص بالنشاط التعليمى فى مجالات الإصلاح الإسلامى ، وكان الأساس الفكرى لها هو نفس الأساس الفكرى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين[2] .

وأنشأت الجمعية أيضًا جمعية التجار فى قسنطينة بهدف إيجاد صيغة للتعاون بين التجار المسلمين وللمشاركة فى الأعمال الخيرية ، ورفع المستوى الاقتصادى للجزائريين وأسهمت بعد الحرب العالمية الثانية بتأسيس شركة كبيرة باسم شركة (آمال) ، كان لها دورها فى تعاون التجار المسلمين واتحادهم ، وظهر أثرها فى مشاركتهم فى المشاريع

---

(١) مازن صلاح حامد مطبقانى . مصدر سبق ذكره ص ١٨٧ .

(٢) د . محمد فتحى عثمان . مصدر سبق ذكره ص ٧٣ .

الخيرية من بناء المساجد والمدارس والنوادى ومساعدة الفقراء بالإضافة إلى أن رجال الجمعية فكروا فى إقامة نهضة صناعية فى البلاد ، كما يتضح من مواد قانونها الأساسى – لجمعية التربية والتعليم – إنشاء معمل للصنائع ، كما دعت الجمعية إلى مقاطعة البضائع الأوربية مما يعنى نوعًا من الاستقلال الاقتصادى المحلى الضيق[1] .

وهكذا نرى أن تأسيس جمعية العلماء كان الحد الفاصل بين ماضى الجزائر المظلم تحت نير الاستعمار ، وبين حاضرها الذى أشرق فى ميدان النهضة الإسلامية والعربية وكان ذلك الحاضر الجديد الذى شكلته جمعية العلماء ، هو الأساس الراسخ الذى بنى عليه مستقبل الجزائر تحت راية الاستقلال .

فالجمعية هى التى غيرت أوضاع الجزائر دينيًا وعلميًا وأخلاقيًا واجتماعيًا ، كانت تبث روح الإيمان الخالص والوطنية الحقة ، وأخلاق الفضيلة والرجولة الكاملة ، ثم اختلطت بها فى خط مواز لأعمالها ، دعاية حرب الاستقلال ، فسارت ضمن خلافات ظاهرية أو شخصية ، نحو هدف واحد ، فى طريق واحد ألا وهو هدف التحرير لكامل ، وطريق الثورة العارمة[2] .

ومهما اختلفت الآراء حول دور هذه الجمعية فهى فى النهاية كانت تمثل قوة الوسط بين قوى الجزائر ، أكبر الهيئات التى تركت آثار واضحة فى الجزائر دون أن تغير من اتجاهها العام آنذاك[3] .

كما جاء تأكيد العلماء المسلمين على وجود قومية جزائرية مقوماتها الإسلام والعروبة فعاد كثير من الجزائريين إلى دينهم ، كما أفتى هؤلاء بردة من يتخلى عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامية للحصول على صفة المواطن الفرنسى ، وكانت هذه لطمة واضحة أصابت السياسة الفرنسية فى الجزائر ، وساعدت على التميز بين الصفات الجزائرية والصفات الفرنسية ، وبالتالى على نضج الشخصية الجزائرية ونموها وتطورها[4] وهى الشخصية التى انخرطت فى الجهاد المسلح ضد الاحتلال ، وهو ما يعترف به عباس

---

(١) مازن صلاح حامد مطبقانى . مصدر سبق ذكره ص ٨٨ ، ص ٨٩ .

(٢) أحمد توفيق المدنى . مصدر سبق ذكره ص ١٨٦ .

(٣) د . جلال يحى . السياسة الفرنسية فى الجزائر . القاهرة . معهد الدراسات الإدية ١٩٥٩ ص ٢٨٣ .

(٤) د . محمد نصر مهنا ، د . عبد الله سيد هديه : تجربة التنمية والتحديث فى الجزائر . دار الثقافة الجديدة القاهرة . الطبعة الأولى ١٩٧٩ ص ٢٠ .

فرحات رئيس حكومة الثورة الجزائرية فى المنفى عندما يقول : « كان الجزائريون المتخرجون من جامعة الزيتونة فى تونس والأزهر فى القاهرة وهم الذين شكلوا جمعية العلماء ، يجعلون من نهضة الإسلام والعروبة الشرط الأول للنهضة الجزائرية ، وكان أنصارهم من جماهير الفلاحين يشكلون أعدادًا ضخمة فقد كان الشعب الجزائرى ينطوى على نفسه ويتمسك بقوة بعقيدته الدينية فى مواجهة القهر الاستعمارى والاستثمار العنصرى ، وكان لابد لهذا التيار أن يؤثر بقوته على كل التيارات السياسية فى الجزائر باتجاه طريق الثورة ويؤكد ذلك عبد الباقى على محمد ، أستاذ التاريخ بجامعة قسنطينة بقوله : « إن الدور الذى اضطلعت به جمعية العلماء فى الجزائر كان هو الدعامة التى قامت من خلالها وفى إطارها الثورة الجزائرية الحديثة »[1] .

وعند اندلاع الثورة وضع العلماء أنفسهم تحت تصرف الجبهة وذلك فى اجتماعهم الذى دعا إليه المدنى فى قسنطينة لتأييد الثورة ،ولأنه على حد قوله « كنت من القلائل الذين يعرفون هذا اليوم » ، كما لعب الشيخ إبراهيم مزهودى دورًا هامًّا فى اتصال العلماء بجيش التحرير الوطنى الجزائرى ، حيث تولى منصب القائد المساعد للولاية الثانية ودور العلماء فى حرب التحرير والبعد الإسلامى لجبهة التحرير سنشرحه بالتفصيل فى الفصل المقبل .

ومما يؤكد قوة هذه الجمعية وتغلغلها فى الوجدان الجزائرى أنه بعد إلغائها بعد التحرير وسيطرت جبهة التحرير على الحكم ومحاصرتها للإسلام ، فإنه فى الفترة الديمقراطية القصيرة التى عاشتها الجزائر أعادت الجمعية تأسيس نفسها عام ١٩٩١ وانخرط فيها الكثير من أبناء الشعب الجزائرى مما يعنى تمكن هذه الجمعية من الوجدان والعقل الجزائرى .

---

(١) محمد مورو . مصدر سبق ذكره ص ٧٦ .

المبحث الثانى
دور ابن باديس فى توظيف الإسلام سياسيا

تأتى أهمية أفراد مبحث لدراسة ابن باديس ، ليس لكونه مناضلاً سياسيًا ، وإنما لكونه مصلحًا فى حدود ما يسمح به وفاؤه المطلق للشريعة ، ولأنه قاد عملية العودة إلى الذات الجزائرية التى كانت قد ضاعت بفعل التشويه الاستعمارى ، ولأنه كما يقول المنصف وناس فى كتابه « مفهوم المشاركة السياسية فى المغرب العربى » : إن أهمية نص ابن باديس ليست المدلول السياسى المباشر ، فذلك ثانوى ، وإنما الفهم للشريعة المميز للعصر ، أن هذا الفهم هو جوهر الإصلاح المقترن لاعتبارين اثنين :

– لقد هيمنت قراءة ابن باديس على التاريخ السياسى الجزائرى المعاصر ، وشكلت نموذج قراءة أصولية .

– لقد كانت هذه القراءة محددة أيضًا لتطور الفكر الجزائرى المعاصر ، وخاصة السلفى منه ، من خلال الحرص على العودة بقوة إلى مجال العمل السياسى الوطنى .

إذن ، إن أهمية ابن باديس ، هى فى إضافاته إلى الفكر السلفى الجزائرى وإعادة إنتاجه للمنظومة الإسلامية ، وإسقاطه على العمل السياسى[1] . وهو التزام الصحيح الصريح مما كان عن النبى – ﷺ – وكان عليه أصحابه ،فكل قول يراد به إثبات معنى دينى لن نجده فى كلام أهل ذلك العصر نكون فى سعة من رده وطرحه وإماتته وإعدامه كما وسعهم إعدامه ، ونرى كل فتنة كانت بين الفرق الإسلامية ناشئة عن مخالفة هذا الأصل[2] .

---

(١) المنصف وناس: مفهوم المشاركة السياسية فى المغرب العربى. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١ ص٥٩

(٢) د .عمار الطالبى : ابن باديس حياته وآثاره الجزء الرابع . دار العرب الإسلامى بيروت لبنان ١٩٦٨ : مناظرة بين سلفى ومعتزلى فى مجلس الواثق ص ٢٤٣ – ص ٢٤٤ .

بالإضافة إلى كون ابن باديس هو الأب الروحى للحركة الإسلامية الحالية فى الجزائر ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس فى الخامس من ديسمبر سنة ١٨٨٩ بمدينة قسنطينة وانحدر من أسرة تنتهى إلى المعز بن باديس الصنهاجى مؤسس الأسرة الصنهاجية التى خلفت الفاطميين على عرش القيروان ، وربما كان وصول ابن باديس للزعامة الدينية امتدادًا لأمجاد أسرته التاريخية ، سواء من ناحية والده أو من ناحية والدته التى انحدرت أيضًا من عائلة بن جلول ، التى برزت فيها بعض الزعامات السياسية ، وقد لعبت نشأته الأسرية دورًا كبيرًا فى تكوين شخصيته وبلوغها مرتبة الزعامة[1] كما أعانت عبد الحميد بن باديس مكانة أسرته الاجتماعية على أن يتحرر من الحاجة للتوظف لدى السلطة الاستعمارية ، وأن يخصص حياته لدعوته وجهوده الإصلاحية .

وقد درس عبد الحميد فى قسنطينة بالجزائر ، ثم فى الزيتونه بتونس منذ سنة ٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م ، ثم رحل إلى الحجاز سنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م حيث كانت ، لدعوة السلفية التى عرفتها شبه الجزيرة العربية منذ أيام الشيخ محمد بن عبد الوهاب قوية ومنتشرة ..

وفى المدينة المنورة اتصل فيها بشيخيه : حمدان الونيس المهاجر الجزائرى ، وحسين أحمد الهندى ، وأشار عليه الأول بالهجرة إلى المدينة ، وقطع كل علاقة له بالوطن (على غرار ما فعله الونيس) ، وأشار الثانى بالعودة إلى الوطن وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الجهد ، ويقول ابن باديس « فرجعنا إلى الوطن بقصد خدمته ، فنحن لا نهاجر ، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية فى هذا والوطن » ولم تكن القومية فى رأى ابن باديس إلا الحفاظ على شخصية الشعب الجزائرى الإسلامية العربية أمام الفرنسية[2] .

البناء الفكرى عند ابن باديس

الأصل الثابت ، عند ابن باديس ، هو الأصل الدينى فى إطار ثنائية أساسية فى فكره : الجوهرى ، والعرضى ، حيث يقول فى الرد على الشيخ الطاهر بن عاشور : « لماذا التذييل ، بدل التدليل والتأصيل ؟ » ويضيف فى موقع آخر : « فيجب على من ولاه الله أمر المسلمين شيئًا من السلطان والخلائق أن يمنعوا هؤلاء الطوائف (يقصد أتباع الطرق الصوفية) ، من الحضور فى المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ،

---

(١) د . نبيل أحمد بلاسى . مصدر سبق ذكره ص ٩١ .

(٢) د .محمد فتحى عثمان . مصدر سبق ذكره ص ٣٧ – ص ٣٨ .

أن يحضر معهم يعينهم على باطلهم ثم إياكم ، والبدع ، فإنها تترك مراسم الدين خالية خاوية ، والسكوت عن المناكر يحيل الشرائع ذابلة ذاوية ...[1] .

فالخط الفكرى الذى انتهجه ابن باديس فى الإصلاح هو إبراز العلة وأصل الداء فى مجتمعات المسلمين المعاصرة بوجه عام ، وفى المجتمع الجزائرى بوجه خاص ، فأكد مرارًا وتكرارًا أن علة العلل لتدهور المسلمين فى حياتهم الفكرية والعلمية إنما هى الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله « فالخسران الذى وعد به الله من خالف الكتاب والسنة ، وإن كان موجها للمشركين إلا أنه من نصيب أهل البدع والضلال فى المجتمع الإسلامى » ، « فهجرنا ذلك – أى هدى الكتاب والسنة – كله ، ووضعنا أوضاعا من عند أنفسنا واصطلاحات من اختراعاتنا خرجنا فى أكثرها عن الحنفية السمحة إلى الغلو والتنطع ، وعن السنة البيضاء إلى الأحداث والبدع ، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمى والتخيل الفلسفى ما أبعدها غاية البعد عن روح الإسلام ، ألقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام[2] فبالرجوع إلى كتاب الإسلام وسنة رسوله دون سواها يتحرر المسلمون إذ يعودون إلى المنبع الأصيل الصافى للإسلام ، فيتخلصون من البدع والأباطيل والخرافات ويتطهرون من جراثيم التواكل والخنوع والجمود والتزمت ، والحق أن الحرص على السلفية فى ديننا هو أقصر الطرق إلى المعاصرة ، فالصحيح الثابت لا يصادم الفطرة والعقل ، ولا يستحيل تطبيقه فى بيئة أو عصر[3] .

فثمة تركيز على أهمية التمسك بالأصل رغم حرص ابن باديس على تأكيد انتمائه إلى مدرسة رشيد رضا ومحمد عبده واحتكاكه ببدايات التجديد فى جامع الزيتونه ، الذى تعلم فيه العلوم الإسلامية التقليدية ، فإن ابن باديس بقى سلفيًا ، قليل الحماس للتحديث ، ولعل هذا ما يفسر خلافاته مع بعض رموز المؤسسة الزيتونية ، الذين كانوا على درجة من الحرص على التجديد ، ذلك أن ابن باديس ينظر إلى التجديد والإصلاح ، باعتبارها عودة مطلقة إلى الدين ، الأصل ، ومن ثم إصراره على تأكيد سلفيته وجهده فى إصلاح الإسلام وصولاً إلى ما يجب أن تكون عليه السنة حتى أواخر القرن العشرين .

---

(١) المتصف ونلس – مصدر سبق ذكره ص ٦٠ .

(٢) تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام العليم الخبير – دار الكتاب الجزائرى بالجزائر ١٩٦٤ ص ٢٢٧ – ص ٢٤١ .

(٣) د . محمد فتحى عثمان . مصدر سبق ذكره ص ٤٠ .

وسواء اتفقنا أو اختلفنا حول أهمية البعد الإصلاحي والتجديدي ، فإنه تجدر الإشارة إلى أن نظرية ابن باديس لا تحتمل « التخوم » ، باعتبارها قائمة الذات مكتفية بالإسلام ، الأصل ، غير عائبة بكل إضافات لا تتلاءم مع هذا النص ، لأنها تعتبر بدعًا .

وليس أدل على ذلك من الموقف المحترز الذي أبداه ابن باديس من الحركة الوهابية التي تعتبر مشروعًا سياسيًا ودينيًا متكاملاً ، وبرر ذلك بقوله : إذ كان النجديون (سكان نجد آنذاك هم السكان الأصليون للمملكة العربية السعودية حاليا) ينتمون للشيخ محمد عبد الوهاب ، باعتباره مصلح بلادهم ، فنحن لا يمكن أن ننتمي إليه إطلاقًا ، لأننا لم نكن من تلامذته ، ولن نمارس معه عمله المباشر ، وإن احترامنا للحقيقة ولأنفسنا يمنعنا من إنكار صلاتنا بأية جهات كانت ، مثلما يمنعنا من الانتماء بطلانا إلى أية جهة كانت »[1] .

وهذا التوجه يعني ويؤكد اتجاه الجزأرة الذي يميز الحركة الإسلامية الجزائرية سواء أيام ابن باديس أو الآن وهو تيار قوى داخل جبهة الإنقاذ الإسلامية بالجزائر ، التي فازت في الانتخابات المحلية عام ١٩٩٠ ، والتشريعية عام ١٩٩١ م . ويؤكد الاستنتاج السابق الكاتب الفرنسي « جان لاكوتير » مؤلف كتاب Hommes حيث قال بأن العلماء هم الذين وضعوا فكرة الوطن الجزائري ، إذ قال إن مجددي فكرة الوطن الجزائري هم بالأحرى هؤلاء الذين أسسوا جمعية العلماء ، أي الشيخ عبد الحميد وأشد أتباعه حماسة كالشيخ الإبراهيمي والعقبي ، فمنذ سنة ١٩٣٠ نرى في الواقع أن هؤلاء الرجال ذوي الثقافة الرفيعة والعلم الواسع ، وهم من أقوى الشخصيات الإسلامية في المغرب المعاصر ، قد ربطوا محاولتهم لتجديد الإسلام والقضاء على الطرق الصوفية بمحاولة تجديد الوطن الجزائري[2] ، وهذا يعني أن انشغال ابن باديس بفكرة الوطن الجزائري هي التي جعلته منكبًا على الإسلام الصافي يأخذ منه ما يصلح ويعيد الجزائر الإسلامية ، ولذلك كانت النماذج الأخرى لا يمكن أن تصلح الجزائر ، وذلك لاختلاف الظروف ، فالجزائر كانت نموذجًا فريدًا بين دول العالم العربي فالاستعمار الفرنسي دمجها قسرًا مع فرنسا ، وحاول تغيير هويتها عنوة ، طوال قرن وأكثر من ثلاثين سنة ، ولذلك كان الخطاب الباديسي ، خطاب الكليات والأساسيات والعودة إلى الذات ، كالهوية والدين والثقافة

---

(١) المنصف ونلس . مصدر سبق ذكره ص ٦٢ – ص ٦٣ .

(٢) د . نبيل أحمد بلاسي . مصدر سبق ذكره ص ٩٧

والتعليم مع الحرص على نقاوة الدين خطاب المعتدل فى اجتهاده ، العالم بظروف وطنه ، فهيمنة الخطاب الشرعي الديني كانت مطلقة ، فجوهر عمل ابن باديس لم يكن سياسيًا ، وإن كان فى بعض المراحل قد اتسم بذلك ، ولكنه كان خطابًا دعويًا رساليا ، يهدف لإعادة الإنسان إلى دين الله من جديد ، ويحمى المتيقين من الجزائريين الذين كانوا ما يزالون قابضين على جمرة النار ، فالمعركة فى الجزائر كانت دينية أكثر من كونها سياسية فالدين واللغة كانا هدف الاحتلال قبل الأرض ، فالمعركة كانت إحدى الحروب الصليبية ، لذلك كان يجب تقديم الدين على السياسة وتحصين وجدان الفرد قبل الدفاع عن الأرض .

الخطاب السياسى والدنيوى لدى ابن باديس

على الرغم من أن ابن باديس كان يهيمن على خطابه الدينى أكثر من السياسى إلا أن خطواته الإصلاحية فى المجال الثقافى والتعليمى والاجتماعى تعتبر بحق عملاً وطنيًا سياسيًا عميق الجذور على المدى الطويل ، وذلك لو نظرنا للأمر فى ظروفه الموضوعية ، ففرنسا كما رأينا زعمت أن الجزائر قطعة من فرنسا ، وذلك طبقًا للأمر الصادر فى ١٨٣٤/٧/٢٢ ، وقررت فى مرسوم بتاريخ ١٨٤٨/٣/٤ بعد عام من إخماد ثورة الأمير عبد القادر الجزائرى أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا . وأغلقت فيما بعد نحو ألف مدرسة عربية كانت قائمة حين احتلالها سنة ١٨٣٠ وكان السبيل لمواجهة هذه المؤامرة ،هو تأكيد شخصية الشعب الجزائرى المسلم العربى ولذلك قال كاتب فرنسى فى جريدة Le Cocorde عن « جمعية العلماء » التى أنشأها ابن باديس :« إن سياستهم الحاضرة تنحصر فى المرابطة بحصن الثقافة والدين ، وهكذا يتدخلون فى كل شىء وينتظرون أن يتقدم رجال آخرون لاستعمال السلاح الذى يصقلونه الآن بأيديهم ويعدونه » ويلور ابن باديس مفهوم الشخصية الجزائرية المتميزة على أساس أصولها الإسلامية والعربية ، وكان بهذا التأصيل الدينى فى صميم العمل السياسى الجذرى . وشعار صحيفته « المنتقد » التى أصدرها سنة ١٩٢٥ كان : « الحق فوق كل أحد ، والوطن قبل كل شىء » .

فماذا يعنى « الوطن » وماذا تكون « الأمة » عند ابن باديس إذن ؟ إن الوطن عنده ليس قطعة من الأرض ولا كومة من تراب ،إنه كيان حى من البشر المسلمين الذين يعيشون فيه « نحن الجزائر ، وما الجزائر إلا الجزائريون » و « الأمة » عنده كيان إنسانى إسلامى ، أقوى مقوماته وأخص خصائصه الإسلام ، وليس مجرد تمتع

عرقى ، « والعروبة » و « العربية » عنده ملتحمان مع الإسلام لاتنفكان عنه ، وحاجز متين يحول دون « التذويب » الثقافى الذى تستخدمه فرنسا ليظاهر « الإدماج » السياسى[1] . وأكد ابن باديس فى كتاباته وأحاديثه أن الإسلام عنده هو الأصل للكيان الجزائرى ففى بيان بليغ قال « لمن أعيش أنا ؟ أعيش للإسلام والجزائر » ، وحول من قد يرى أن هذا ضيق فى النظر وتعصب للنفس وقصور للعمر يرد ابن باديس : نعم إن خدمة الإنسانية فى جميع شعوبها والحرب عليها فى جميع أوطانها واحترامها فى جميع مظاهر تفكيرها . ونزعاتها ، هو ما نقصده ونرمى إليه ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة ، ونحن لما نظرنا فى الإسلام وجدناه الدين الذى يحترم جميع أجناسها ، ولما عرفنا أنه دين الإنسانية الذى لا نجاة لها ولا سعادة إلا به وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله ، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا عن طريقه ، فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته ، فإذا عشت له فإننى أعيش للإنسانية : لخيرها وسعادتها فى جميع أجناسها وأوطانها ، وفى جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها ، وما كنا لنكون هكذا إلا بالإسلام الذى ندين به ونعيش له ونعمل من أجله ...

أما الجزائر فهى وطنى الخاص .. والذى تربطنى بأهله روابط من الماضى والحاضر والمستقبل بوجه خاص ، وتفرض علىّ تلك الروابط لأجله – كجزء منه – فروضًا خاصة ، وأنا أشعر بأن كل مقوماتى الشخصية مستمدة منه مباشرة ، فأرى من الواجب أن تكون خدماتى أول ما تتصل بشىء تتصل به مباشرة ، وما مثلنا فى وطننا الخاص – وكل ذى وطن خاص – إلا كمثل ذوى بيوت من قرية واحدة ، فبخدمة كل واحد لبيته تتكون من مجموع البيوت قرية سعيدة راقية ، فنحن إذا كنا نخدم الجزائر فلسنا نخدمها على حساب غيرها ولا للإضرار بسواها معاذ الله ، والآن أيها الإخوان وقد فهمتمونى وعرفتم سمو فكرة العيش للإسلام والجزائر ، فهل تعيشون مثلى للإسلام والجزائر ، فلتقل كلنا : ليحيا الإسلام ، لتحيا الجزائر »[2] .

---

(١) د . محمد فتحى عثمان . مصدر سبق ذكره ص ١٠٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٢ – ص ١٠٣ نقلاً عن مجلة الشهاب جـ ١٠/م ١٢ فى غرة شوال ١٣٥٥ هـ – يناير ١٩٣٧م .

فالمشاعر القومية مرتبطة لديه دائمًا بالمشاعر الإنسانية وكلاهما مرتكز العقيدة الإسلامية ولكن الجزأرة لديه كانت محور حياته . فبخدمة الوطن الجزائرى يكون قد خدم الإنسانية جمعاء ، فالمحلية أو الإقليمية لديه هى جزء من الأممية التى يدعو لها الإسلام .

أما الوطن والوطنية لدى ابن باديس فيشرحهما فى مقال تحت عنوان « الوطن الوطنية » ، نشر فى الشهاب (جـ ٧/م ١٣) بعددها الصادر فى رجب ١٣٥٦ هـ / سبتمبر ١٩٣٧ م جاء فيها : « ... لا يعرف ولا يحب الوطن الكبير إلا من عرف وأحب الوطن الصغير ، والناس إزاء هذه الحقيقة أربعة أقسام : قسم لا يعرفون إلا أوطانهم الصغيرة (بيوتهم وأسرهم) ، وهؤلاء هم الأنانيون وهم فى الغالب لا يكون منهم خير حتى لأقاربهم وأهل بيوتهم ، وقسم يعرفون وطنهم الكبير فيعملوّن فى سبيله كل ما يرون فيه خيره ونفعه ، ولو بإدخال الضرر والشر على الأوطان الأخرى ، بل يعملون دائمًا على امتصاص دماء الأمم والتوسع فى الملك لا تردهم إلا القوة وهؤلاء شر وبلاء على غير أممهم بل وعلى أممهم ، وقسم زعموا أنهم لا يعرفون إلا الوطن الأكبر وأنكروا وطنيات الأمم كما أنكروا أديانها وعدّوها مفرقة بين البشر ، وهؤلاء عاكسوا الطبيعة جملة ، وما عرفته البشرية منذ آلاف السنين ودلائل الفشل على تجربتهم ، حيث أجروا تجربتهم لا تكاد تخفى ، وقسم اعترف بهذه الوطنيات كلها ونزلها ومنازلها غير عادية ولا معدو عليها ورتبها ترتيبها الطبيعى فى تدرجها ، وهذا الرابع هو الوطنية الإسلامية العادلة ، إذ هى التى تحافظ على الأسرة ، بجميع مكوناتها ، وعلى الأمة بجميع مقوماتها ، وتخدم الإنسانية فى جميع أجناسها وأديانها ، وهذه هى وطنيتنا معشر المسلمين الجزائريين الأفارقة ، ووطنية كل مسلم صادق فى إسلامه ووطنيته ..[1] .

فالوطنية عند ابن باديس ، وكذلك الوطن يعرفهما فى إطارها الإسلامى أيضًا والذى يرى من وجهة نظره أنها تعنى الاعتراف بالأوطان والأمم بشكلها الطبيعى ، وهذا ما يدعم فكر الجزأرة لديه ، وخصوصية الوطن والشعب الجزائرى وإن كان يرى إمكانية أن يدوم الاتحاد بين شعبين مختلفين فى الجنسية القومية إذا تناصفا وتخالصا فيما ارتبطا به من الجنسية السياسية التى قضت بها الظروف واقتضتها المصلحة المشتركة .

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٤ .

فثنائية السياسى – الدنيوى ، لا يوجد لها وجود مستقل ، إلا بقدر ما تدعم الدينى ، فالسياسى فى حياة الشيخ ابن باديس يمارس « مبدأ التخفى والتجلى » فيحضر كلما دعم الدينى والشرعى ، ويختفى كلما كانت الحاجة ضرورية لهيمنته ، الخطاب الدينى والسياسى مكمل للدين ، وليس موجها له ، لما تقدم من الأسباب .

وهنا تكمن خصوصية الخطاب الباديسى المتمثله فى غياب المستوى الدنيوى بجانب المستوى الدينى الذى كان الأكثر وجودًا .

لقد كان ابن باديس نموذجًا للعالم السلفى المناضل فى سبيل إسلام « تقى وطاهر » وظل هكذا حتى مماته ساعيًا لتحقيق هذا « الحلم » .. ليكون بذلك علامة بارزة فى تاريخ الفكر السلفى الجزائرى ، « مدشنا » بداية ونهاية السلفية الوطنية ، وتتمثل « وطنيته » فى حبه للجزائر ، ودفاعه عن هويتها الأمر الذى سبب له المضايقات ، إلا أن سلفيته بقيت تقليدية الطبع مالكية الجوهر ، وسنية التوجه عمومًا ، رغم عدم إيمانه الظاهر بتعدد المذاهب ، لأن الإسلام واحد ، كما يقول ومن ثم كانت نظرية ابن باديس الأساس الأيديولوجى الحقيقى لحركة السلفية الجزائرية منذ ذلك الوقت وحتى الآن ، فخلقت أجيالاً متعددة وقدمت لها المنطلقات الأساسية ، لدخول العمل السياسى الوطنى وتحقيق تطلعات التحرر والبناء والتحديث ، ولذلك كانت السلفية حاضرة ، ومؤثرة رغم تبنى الجزائر الاشتراكية العلمية فى ميثاق الجزائر ١٩٦٤ والميثاق الوطنى ١٩٧٦ ، فلسفية اليوم ، تنتمى روحًا وجوهرًا إلى محاولة ابن باديس الإصلاحية ، بل إنها فى بعض ملامحها لم تتجاوز حدود المشروع الباديسى – كما يقول المنصف وناس فى كتابه مفهوم المشاركة السياسية فى المغرب العربى[1] وهو ما سنراه جليا عندما نتناول الحركة الإسلامية المعاصرة لذا كان من الضرورى إفراد هذا المبحث .

---

(١) المنصف وناس . مصدر سبق ذكره ص ٦٦ – ص ٦٧ .